حديث الأنبياء (١)

آدم أبو البشر

عليه السلام

اسم الكتاب: آدم أبو البشر عليه السلام.

اسم المؤلف: إبراهيم أحمد قشطة.

الطبعة الثانية: ١٤٤٤هـ – ٢٠٢٢م.

آدم أبو البشر

عليه السلام

أ/ إبراهيم أحمد قشطة

رفح – فلسطين
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

الطبعة الثانية
طبعة مزيدة ومنقحة

الإهداء

إلى والدي – قدّس اللهُ روحَه – الذي علمني أنَّ الرجال يصنعهم العرق.

إلى والدتي – رزقها اللهُ حسنَ الخاتمة – التي علمتني أنَّ الكلمة الطيبة شجرة وارفة يستظلّ تحتها الناس من قيظ الحياة.

إلى شيوخي وأساتذتي الذين علموني أنَّ الإسلام دين عظيم لو أن له رجال.

إلى زوجتي التي علمتني أنَّ مَنْ لا يحبّ صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر.

إلى أُختيّ اللتين تعلمت منهما أنَّ الأخوة مشاعر جميلة حميدة.

إلى أبنائي أحمد وتسنيم ولمى ومحمّد الذين علموني أنَّ الأبوة أحلى المعاني.

المحتويات

المقدّمة

إنَّ الحمد الله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنَّ محمّدًا عبده ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ (الأحزاب: ٧٠ - ٧١)

أمّا بعد:

فإنَّ أصدق الحَديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار، أعاذنا الله من البدع والضلالات والنيران.

وبعد:

هذا الكتاب الأوّل من سلسلة (حديث الأنبياء) والموسوم باسم (آدم أبو البشر عليه السلام)، ويروى هذا الكتاب قصّة أوّل أنبياء الله تعالى إلى الأرض، يروي خبر آدم –عليه السلام – الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعَلَّمَهُ من عِلْمِهِ، وأسجد له ملائكته، وأسكنه فسيح جنته، وخلق له زوجًا من نفسه.

قال الصابوني: " وقصّة آدم – عليه السلام – هي قصّة البشريّة بأسرها، وحياته حياة هذا الوجود بأكمله، منذ أن أراد الله – جلت عظمته – لهذه الدنيا أن تعمر، ولهذا الوجود أن يظهر، ولهذه الحياة أن تكتمل وتزدان بظهور هذا الإنسان." (محمّد الصابوني)

وقد اجتهدتُ في هذه الكتاب أن أعرض قصّة أبي البشر وأوّل الأنبياء آدم عليه السلام بأسلوب سهل يسير، وقد وقع الكتاب في فصلين: حيث جاء الفصل الأوّل (أوّل الأنبياء آدم عليه السلام) متحدثًا عن إخبار الله تعالى ملائكته بخلق آدم، وما جرى من حوار بين الله وملائكته، كما وذكر الفصل بدء خلق آدم، وأَمْر الله تعالى للملائكة وإبليس بالسجود له، وما كان من امتناع إبليس اللعين عن تنفيذ أمر الله فطُرد من الجنّة.

وناقش الفصل خَلْق حواء، كما وذكر الفصل ما كان من إبليس اللعين من الحقد والكراهية لآدم، ومبارزته العداوة له، وحيل إبليس ومكره بآدم وزَوْجه حتى أوقعهما في المعصية، وتوبة الله تعالى عليهما.

ومن ثَمَّ إنزالهما إلى الأرض ومعهما الشيطان، كما وذكر الفصل خبر احتجاج آدم وموسى، وناقش الفصل قضيتين مهمتين: أخذ الذرّيّة من ظهر آدم، وهل وقع شركٌ من آدم وحواء؟

كما وسرد الفصل قصّة ابني آدم وما كان من شأنهما، وأخيرًا نَبّه الفصل إلى الإسرائيليّات والموضوعات التي شوهت قصّة آدم عليه السلام.

أمّا الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصّة آدم عليه السلام) تناول أهمَّ الثمار المستطابة من قصّة آدم عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.

الفصل الأوّل

أوّل الأنبياء آدم عليه السلام

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ (البقرة: ٣٠)

أوّل الأنبياء آدم – عليه السلام –

⭘ تمهيد:

آدمُ – عليه السلام – هو أبو البشر، وقد جاءت قصّته – عليه السلام – في عدّة سور من القرآن الكريم، حيث ذُكرت في سورة البقرة، والأعراف، والإسراء، والكهف، وطه، وص.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠)

⭘ إعلام الله تعالى ملائكته بخلق آدم واستخلافه:

قبل أن يخلق الله تعالى آدم بيده واستخلافه أخبر ملائكته بذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ (البقرة:٣٠) أي: قال الله تعالى للملائكة: إني خالقٌ في الأرض، ومتّخذ فيها خليفة.

فصار آدم خليفةً في الأرض، فيا ترى عمّن صار آدم خليفة؟!

اختلف عمّن يكون آدمُ خليفةً، وذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأوّل: " خليفة عمَّنْ كان يسكن الأرض قبل آدم، ويعمرها من الجنّ، فقد روي أنهم كانوا يسكنون الأرض قبل آدم، فلمّا أفسدوا فيها أمر الله – عزَّ وجلَّ – الملائكة أن تطردهم إلى جزائر البحار ورؤوس الجبال، ثم أخبرهم بعد ذلك أنه جاعل في الأرض خليفة من هؤلاء الجنّ." (محمّد هراس)

وهذا القول لا يصح لعدم وجود دليل شرعي صحيح عليه من الكتاب والسنّة.

القول الثاني: " خليفة عن الله يخلفه سبحانه في عمارة الأرض، بالعدل والتوحيد، وتنفيذ أحكام الله بين أهلها، والمراد به آدم، ومن يتأهل لمنصب تلك الخلافة من ذرّيّته من الرسل والأنبياء، ورعاة الإصلاح من أتّباعهم والحكام العادلين." (محمّد هراس)

وهذا القول – أيضاً – بعيد.

القول الثالث: وهو الصواب إن شاء الله: " المعنى بخليفة النوع الإنسانيّ كلّه، أي يخلف بعضه بعضًا في الحياة على ظهر الأرض، والقيام بعمارتها كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ (الأنعام: ١٦٥) أي: " يخلف بعضكم بعضًا فيها قرنًا بعد قرن، وجيلًا إثر جيل." (محمّد هراس)

الحاصل: أخبر الله تعالى ملائكته بخلق آدم، والسؤال الذي يطرح نفسه: لِمَ أخبر الله تعالى ملائكته بخلق آدم وذرّيّته؟

الجواب: أخبر الله تعالى ملائكته بخلق آدم وذرّيّته من باب التنويه بهذا الأمر العظيم قبل كونه.

في نهاية الأمر عندما سمعت الملائكة بخلق الله تعالى لهذا المخلوق قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: ٣٠) أي: أتجعل فيها من يفسد فيها بالمعاصي، ويريق الدماء بالقتل، ونحن ننزهك غاية التنزيه عمّا لا يليق بك، ونسبح بحمدك، ونعظم أمرك، **وحاصل كلام الملائكة:** أنهم قائمون بعبادته تعالى على خير وجه خال من أي مفسدة.

وتأمّل: ذَكَرَتِ الملائكةُ مفسدة القتل بالذات؛ للتأكيد على شدّة خطورتها، وإلّا فجميع الذنوب مفاسد!

إشكال: الملائكة لا تسبق ربّها بالقول نهائيًا، قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٧)، **فكيف قالوا:** ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ **(البقرة: ٣٠)؟**

الجواب: قول الملائكة السابق جاء بقصد الاسترشاد عن وجه الحكمة، لا على وجه الاعتراض والتنقص لآدم والحسد له، وحاشاهم ذلك.

وقيل: قال الملائكة ذلك على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه، أو التعجب من عصيان الله تعالى ممّن سيستخلفه في أرضه وينعم عليه ذلك.

وقيل: قالوا ذلك استعظامًا وإكبارًا للأمرين معًا: الاستخلاف والعصيان.

إشكال آخر: الملائكة لا تعلم إلّا ما قد أُعلمت به، فمن أين علموا أن ذلك كائنٌ؟!

قيل: إنهم قد رأوا مَنْ كان قبل آدم مِنَ الجنّ، مِنْ سفكهم لدماء بعضهم بعضًا، فبعث الله إليهم جندًا من الملائكة، فطردهم إلى جزائر البحار.

وهذا القول لا يصحُّ لعدم وجود دليل شرعي صحيح عليه من الكتاب أو السنّة.

وقيل: " إنَّ الله تعالى أخبرهم بخلق آدم وبما يكون من مجرمي ذرّيّته." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

وهذا القول محتمل.

وقيل: إنهم لمّا سمعوا لفظ (خليفة) فهموا أنَّ في بني آدم من سوف يفسد، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد.

وهذا القول محتمل أيضًا.

على كل حال: تساءل الملائكة عن وجه الحكمة من خلق هذا المخلوق، فَبِمَ أجابهم الله تعالى؟

الجواب في النقطة الآتية!!

⊙ ردُّ الله تعالى على سؤال الملائكة:

عندما تساءل الملائكةُ عن وجه الحكمة من خلق هذا المخلوق أجاب الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠) أي: قال الله تعالى للملائكة: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون من فوائد ومصالح ومنافع، لا تعدُّ ولا تحصى.

فيا ترى ما هذه المنافع والمصالح من خلق آدم؟

بداية: أفعال الله تعالى لا تخلو من حكمة علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وفي خلق آدم حِكَم عدّة، منها:

١. اجتباء الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين.
٢. ولتظهر عبوديات ما كان أن تظهر بدون خلق هذا الخليفة كالجهاد وغيره.
٣. وليظهر ما كمن في غرائز بني آدم، فيظهر عدوُّه من وليه، وحزبُه من حربه.
٤. وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشرّ الذي انطوى عليه واتّصف به.
٥. ولتظهر أسماء الله تعالى وصفاته: كالمنتقم، والرزاق، والرحيم، ونحوه.

الحاصل: خلق الله تعالى آدم، فكيف خلقه؟

هذا ما ستخبرك به الفقرة الآتية!!

◎ خلق آدم:

خلق اللهُ تعالى آدمَ بيده من قبضة قبضها من جميع تراب الأرض من أحمرها وأبيضها وأسودها، ومن سهلها وحزنها، ومن خبيثها وطيبها؛ ليأتي النسل على هذه الطبائع.

قال صلى الله عليه وسلم: " **إنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ آدمَ من قَبضةٍ قَبضَها من جميعِ الأرضِ، فجاءَ بَنو آدمَ على قَدْرِ الأرضِ، فجاءَ منهم الأحمرُ والأبيضُ والأسودُ وبينَ ذلكَ، والسهلُ والحزنُ، والخبيثُ والطيبُ.**" (رواه الترمذي: ٢٩٥٤)، والحديثُ صحيحٌ.

ومعنى الحَديث: أنّ بني آدم جاءوا على قدر الأرض: أي حسب ألوانها وأنواعها، فجاء بنو آدم منهم أحمر البشرة وأبيضها وأسودها[١]، وذلك بحسب تربّتها.

" **وبين ذلك**" أي: جاء من بني آدم مَنْ يكون بين صاحب البشرة الحمراء والبيضاء والسوداء.

كما أنهم قد جاءوا حسب أنواع الأرض، فمنهم السهل: أي اللين المنقاد، ومنهم الحزن أي: الغليظ الطبع، ومنهم الخبيث: أي: خبيث الخصال، ومنهم الطيب: أي: المؤمن.

والمتأمّل في طبائع الناس وأخلاقهم يجد هذا التباين في طبائعهم واضحًا جليًّا.

---

(١) ذُكرت هذه الألوان دون غيرها لأنَّها هي أصول جميع الألوان.

ونعود – والعود أحمد – إلى كيفية خلق آدم، حيث قد كان بدء خلق آدم – أوّلًا – من تراب، ثم خلطه بالمياه المختلفة فصار طينًا لازبًا (أي: يلتصق باليد)، ثمّ لمّا طالت مدّة بقائه طينًا تغير ذلك الطين فصار حمأً مسنونًا، أي طينًا أسود متغيرًا مصورًا على صورة إنسان، ثم أيبسه بعدما صوره، فصار كالفخار الذي له صوت جرس صلصلة، وفي هذه الأطوار كان آدم جسدًا بلا روح، وكان طوله ستّين ذرعًا في السماء.

وقد أشار القرآن الكريم لهذه المراحل:

- قال تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ (الصافات: ١١)
- قال تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الحجر: ٣٣)
- قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ (الرحمن: ١٤)

في نهاية الأمر لمّا تكامل خلق جسد آدم نفخ الله تعالى فيه الروح، وما أن بلغت الروح رأسه عطس، فقال: الحمد لله ربّ العالمين، فقال له تبارك وتعالى: يرحمك الله.

فانقلب ذلك الجسد الذي كان جمادًا إلى حيوان ذي حسّ وشعور، وقدرة على الكلام والحركة، هذه حقيقةُ الإنسان الذي أعدَّه تعالى لكل علم وخير.

نهض آدمُ وقام، فقال له تعالى: اذهبْ فسلّمَ على أولئك النفر من الملائكة جلوس، فاِسْتَمَعَ ما يحيّونك، فإنها تحيتك وتحية ذرّيّتك، فقال آدم: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكل مَنْ يدخل الجنّة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " **خَلَقَ اللهُ آدمَ على صورتِهِ وطولُهُ سُتُّونَ ذراعًا، فلمّا خَلَقَهُ قالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمَ عَلى أولئكَ النفرِ مِنَ الملائكةِ فاِسْتَمَعَ ما يُحَيُّونَكَ، فإنّها تحيُتك وتحيةُ ذرّيّتِكِ، فقالَ السلامُ عليكم، فقالوا: السلامُ عليك ورحمةُ اللهِ، فَزادوهُ: (ورحمةُ اللهِ)، فكلُّ مَنْ يدخُلُ الجنّةَ على صورةِ آدمَ، فلم يَزَلِ الخَلْقُ ينقصُ حتّى الآنَ.**"

(رواه البخاري: (٦٢٢٧)، ومسلم: (٢٨٤١))

وقد خُلِقَ آدم في يوم الجمعة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **خيرُ يومٍ طَلَعَتْ عَليهِ الشمسُ يومُ الجمعةِ، فيهِ خُلِقَ آدمُ، وفيهِ أُدْخِلَ الجنّةَ، وفيهِ أُخْرِجَ منها، ولا تقومُ الساعَةُ إلّا في يومِ الجمعةِ.**"

(رواه مسلم: ٨٥٤)

o **إظهار فضل آدم عليه السلام:**

لمّا خلق الله تعالى آدم بيديه أراد سبحانه أن يُظهر فضل آدم وشرفه للملائكة، فعلمه أسماء الأشياء كلها، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١)

ويا ترى ما هذه الأشياء التي علم الله آدم أسماءها؟

علّم الله تعالى آدم أسماءَ كل شيء، أي ما ترك شيئًا من الأشياء إلّا علمه اسمه، وليس المقصود أنه علمه أسماء بعض الأشياء دون بعض، والدليل على ذلك جاءت كلمة (أسماء) جمع، ودخلت عليها (أل) فأفادت العموم والشمول، ثم أَكّدَ ذلك العموم والشمول بقوله تعالى: ﴿كُلَّهَا﴾ أي: كل الأسماء.

قال ابن عباس: " هي هذه الأسماءُ التي يتعارفُ بها الناس: إنسان، ودابّة، وأرض، وسهل، وبحر، وجبل، وجمل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

الحاصل: عرض الله هذه الأشياء على الملائكة، وقال لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ (البقرة: ٣١) أي: أخبروني بأسماء هذه المخلوقات التي تشاهدونها إن كنتم صادقين في مضمون كلامكم الأوّل الذي مقتضاه أن ترك خلق آدم أولى، هذا بحسب ما ظهر لهم في تلك الحال، وليس هذا أمرًا إلهيًّا من قبيل الأوامر التكليفيّة، وإنما هو على جهة إقرار المخاطب.

على كل حال عجزت الملائكةُ – عليهم السلام – عن معرفة أسماء هذه المسميات، وقالوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣٢)

فلم يكن هذا ممّا علمهم الله إياه إذ لا شأنَ لهم به، فأمر اللهُ تعالى آدمَ عندئذ أن ينبئهم بأسمائهم: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ (البقرة: ٣٣) أي: " أعلمهم بالأسماء التي عجزوا عن علمها، واعترفوا بتقاصر هممهم عن بلوغ مرتبتها." (محمّد الصابوني)

وبالفعل أنبأهم آدم بأسمائهم، عندئذ توجه لسبحانه تأكيد حكمته التي خلق آدم لأجلها، فقال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ (البقرة: ٣٣) أي: " قال تعالى للملائكة: ألم أنبئكم بأنّي أعلم بما غاب في السموات والأرض عنكم، وأعلم ما تظهرون وما تسرون من دعواكم أنّ الله لا يخلق خلقاً أفضل منكم." (محمّد الصابوني)

وقفة وتأمّل: العلم الذي مُدِحَ به آدم هو علمٌ مستمدٌّ من تعليم الله له، وهذا يدلُّك على أمرين، الأوّل: أن آدم محاط برعاية الله ولطفه، أمّا الثاني: أن العلم الذي تلقاه آدم هو علم خال من أي خطأ أو خلل، بخلاف العلم الذي يحصل عليه الإنسان من طريق الفكر والنظر.

ونختم هذه النقطة بما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم: " **يتعاقبونَ فيكم ملائكةٌ بالليلِ وملائكةٌ بالنهارِ، ويجتمعونَ في صلاةِ**

العصرِ وصلاةِ الفجرِ، ثم يُعْرُجُ الذين باتوا فيكم فيسألُهم – وهو أعلمُ بهم – كيف تركتم عبادي؟ فيقولونَ: تركناهم وهم يُصلّونَ، وآتيناهم وهم يُصلّونَ." (رواه البخاري: (٥٥٥)، ومسلم: (٦٣٢))

قال ابن حجر: " الحكمة فيه استدعاء شهادتهم للنبي آدم بالخير، واستنطاقهم بما يقتضي التعطف عليهم، وذلك لإظهار الحكمة في خلق نوع الإنسان في مقابلة من قال من الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠) أي: وجد فيهم من يسبح ويقدس مثلكم بنصّ شهادتكم." (مصطفى العدوي: ٢٠٠٢)

- **سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس:**

قال السعدي: " شاهد الملائكة من كمال هذا المخلوق وعِلْمه ما لم يكن في حسابهم، وعرفوا بذلك على وجه التفصيل والمشاهدة كمال حكمة الله وعظّموا آدم غاية التعظيم، فأراد الله تعالى أن يظهر هذا التعظيم والاحترام لآدم من الملائكة ظاهرًا وباطنًا، فقال للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ (البقرة: ٣٤)" (عبد الرحمن السعدى: ٢٠٠٢)

فما أن سمع الملائكة هذا الأمر الإلهي حتى بادروا جميعًا بتنفيذه، فسجدوا أجمعين، فكيف كان سجودهم؟!

بداية: السجود لغة: التذلّل والخضوع مع انخفاض بانحناء وغيره.

أمّا السجود في الشرع: هو وضعُ الجبهة على الأرض بقصد العبادة.

نعود للسؤال السابق: كيف كان سجود الملائكة لآدم؟

اختلف العلماءُ في المقصود بسجود الملائكة لآدم على قولين بعد اتّفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة:

القول الأوّل: قول الجمهور: " كان هذا أمرًا للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد في الصلاة؛ ولأنّه الظاهر من السجود في العرف والشرع، وعلى هذا يكون ذلك السجود تكريمًا لآدم، وإظهارًا لفضله، وطاعة لله تعالى، وكان آدم كالقبلة لنا، ومعنى ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ أي: " إلى آدم كما يقال صلّى للقبلة أي إلى القبلة."

(القرطبي: ٢٠٠٢)

القول الثاني: وهو الصواب إن شاء الله: " لم يكن هذا السجود كالسجود المعتاد اليوم الذي (هو) وضع الجبهة على الأرض، ولكنه مُبقًى على أصل اللغة، فهو من التذلّل والانقياد، أي اخضعوا لآدم وأقروا له بالفضل، فـ ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾ أي: امتثلوا ما أمروا به."

(القرطبي: ٢٠٠٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ (الرعد: ١٥)

الحاصل: بادر الملائكةُ كلُّهم أجمعين بتنفيذ أمر ربّهم، فخضعوا لآدم وأقروا له بالفضل، وكان إبليس بينهم، وقد وُجِّهَ إليه الأمر بالسجود معهم، ولمّا كان إبليس – لعنه الله – قد حسد آدم على ما أحرزه من فضل، فامتنع من ذلك، وأبى عن أمر الله واستكبر.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾[1] (البقرة: ٣٤)، ثم صار إبليس ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (البقرة: ٣٤) أي: أصبح إبليس كافرًا.

ولم يكتفِ اللعين بالامتناع عن السجود بل باحَ بالاعتراض على ربّه، والقدح في حكمته، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ (الأعراف: ١٢)

عن الحسن قال: " قاسَ إبليس وهو أوّلُ من قاس."

(القرطبي: ٢٠٠٢)

" ومعنى هذا أنه نظر بطريق المقايسة بينه وبين آدم، فرأى نفسه أشرف من آدم؛ لأنّه مخلوق من نار، بينما الإنسان مخلوق من طين، والقياس إذا كان مقابلًا للنصّ كان فاسد الاعتبار، ثم هو فاسدٌ في نفسه؛ فإنّ الطين أنفع وخير من النار؛ لأنّ الطين فيه الرزانة والحلم

---

(١) كان استكبار إبليس هو السبب الأساسي في إبائه لتنفيذ أمر الله بالسجود لآدم، وسيأتي مزيدًا من التفصيل عن شؤم خُلق الاستكبار في فصل الفوائد إن شاء الله.

والنمو، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

في نهاية المطاف: امتنع إبليس عن السجود، فصار من المطرودين من رحمة ربّ الأرض والسماء، قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٣) أي: اهبط من الجنّة فلا يصحّ ولا ينبغي لك أن تتكبر فيها عن طاعتي وأنت تسكن جنّتي، فاخرج منها ذليلاً حقيراً ومطروداً، قال الزمخشري: " وذلك أنه لمّا أظهر الاستكبار ألبسه الله الذلّ والصغار، فمَنْ تواضع لله رفعه، ومَنْ تكبر على الله وضعه." (محمّد الصابوني)

وسجّل الله عليه لعنتَه إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾ (ص: ٧٨) أي: إنّ طردي وابعادي لك صار أبدًا دائمًا وملازمًا.

وصدق في إبليس قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " **إذا قرأَ ابنُ آدمَ السجدةَ فسجَدَ اعتزلَ الشيطانُ يبكي يقولُ: يا وَيْلَه.**"، وفي رواية أبي كريب: **يا وَيْلي، أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسجودِ فسجَدَ فلَهُ الجنّةَ، وأُمِرْتُ بالسجودِ فأَبيتُ فلي النارُ.**" (رواه مسلم: ١٤٤)

- **عداوة إبليس اللعين لآدم إلى يوم الدين:**

اشتعل العداء في نفس إبليس لآدم، والمتبادر للذهن أن عداوة إبليس لآدم كانت منذ أنّ أُمِرَ بالسجود له، ولكن الصحيح أن عداوة إبليس لآدم بدأت منذ أن كان آدم مجندلًا في طينه، وقبل نفخ الروح فيه، فقد

جاء في الحَديث عن أنس أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: **" لمّا صَوّرَ اللهُ آدمَ في الجنّةِ تركَهُ، فجعلَ إبليسُ يطوفُ بِهِ، يَنْظُرُ ما هو، فلمّا رآه أجوفَ، قالَ: ظفرتُ بِهِ خَلْقٌ لا يتمالكُ."**

(رواه مسلم: ٢٦١١)

على كل حال: " أيقن الخبيثُ بالبوار، فلم يخضعْ لربّه بل ناصب آدم العداء، وصمّم التصميم التامّ على عداوة آدم وذرّيّته، ووطّن نفسه لمّا علم أنه حُتِّمَ عليه الشقاء الأبدي أن يدعو ذرّيّة آدم بقوله وفعله وجنوده إلى أن يكونوا من حزبه الذين كتب لهم البوار، فقال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ (ص: ٧٩)؛ ليتفرغ لإعطاء العداوات حقّها في آدم وذرّيّته." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

" ولمّا كانت حكمة الله اقتضت أن يكون الآدمي مركبًا من طبائع متباينة، وأخلاق طيبة أو خبيثة، وكان لا بدّ من تمييز هذه الأخلاق، وتصفيتها بتقدير أسبابها من الابتلاء والامتحان الذي من أعظمه تمكين هذا العدوّ من دعوتهم الى كل شرّ، فأجابه تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾[1] (الحجر: ٣٦ – ٣٨)"

(عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

وقال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ۝٦٣ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ

---

(١) قوله: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ أي: إلى وقت النفخة الأولى.

عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ (الإسراء: ٦٣ – ٦٤)

أي: " إن قدرت فاجعلهم منحرفين في تربّية أولادهم إلى التربّية الضارّة ...، وفي الكسب الضارّ، وأيضًا شارك منهم من إذا تناول طعامًا أو شرابًا أو نكاحًا ولم يذكر اسم الله على ذلك في الأموال والأولاد، ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي: مرهم أن يكذبوا بالبعث والجزاء، وألّا يقوموا على خير، وخوّفهم من أوليائك، وخوّفهم عند الإنفاق النافع بالبخل، وهذا من الله لحكم عظيمة وأسرار." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

عندئذ أقسم إبليس أمام ربّ العالمين: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ (الإسراء: ٦٢) أي: " قال الشيطان جرأة وكفرًا: أرأيتك هذا الذي شرفته وعظمته عليّ؛ لئن أنظرتني لأضلنّ ذرّيّته إلّا قليلًا منهم." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وأقسم – أيضًا – اللعين على دوام عداوته لهذا المخلوق وذرّيّته إلى يوم الدين، فقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٦ – ١٧) أي: بسبب إغوائك إياي لأقعدنّ لهم كل مرصد، ولآتينهم من كل جهة من الجهات الأربع.

قال الزمخشري: " ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدوّ في الغالب، وهذا مَثَلٌ لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقَدَرَ عليه كقوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الإسراء: ٦٤)" (ابن القيم: ٢٠٠٢)

تأمّل: ذكرت الآية جميع الجهات ما عدا من فوقهم، لماذا؟

قال ابن القيم: " قال ابن عباس: لأنّه عَلِمَ أنّ الله من فوقهم، وقال الشعبيُّ: فالله – عزّ وجلّ – أنزل الرحمة عليهم من فوقهم، وقال قتادة: أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل جهة غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

ومقولة إبليس السابقة كانت ظنًّا منه؛ لأنّه توقع ما جبل عليه هذا الآدمي، ويا للأسف ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠﴾ (سبأ: ٢٠)

قال السعدي: " وقع ظنُّ إبليس، فاتّبعه كثيرٌ من بني آدم إلّا فريقًا من خوّاص الذرّيّة من: الأنبياء، وأتّباعهم من الصدّيقين، والأصفياء، وطبقات المؤمنين، فإنّ الله تعالى لم يجعل لهذا العدوّ عليهم تسلطًا بل أقام حولهم سورًا منيعًا، وهو حمايتهم وكفايتهم، وزودهم بسلاح لا يمكن عدوّهم إبليس من مقاومته أو سجالهم به ألا هو كمال الإيمان بالله وقوّة

توكلهم عليه، ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ (النحل: ٩٩)" (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

- **خلق حواء:**

أنعم الله على آدم بنعم كثيرة وعطاءات عظيمة، فخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسكنه جنته، وعلمه أسماء الأشياء كلها، وأسجد الملائكة له، وأتمّ نعمته عليه بأنّ خلق منه زوجًا له، من جنسه وعلى شكله وصورته؛ ليسكن إليها، وهذا من تمام النعمة إذ لو كانت زَوْجه من غير جنسه كجنس الحيوان أو الجنّ – مثلًا – لمّا تحقّق الانسجام والالتئام كما أن تكون زَوْجه من جنسه.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ (الأعراف: ١٨٩)

فكانت النعمة الكبرى أنْ أنعم الله على آدم بحواء(١)؛ ليسكن إليها.

كيف خلقت حواء؟

كثر النقاشُ حول هذه المسألة، وتباينت فيها وجهاتُ النظر.

حيث ذهب الشعراوي إلى: أنّ حواء خُلقت مثلما خُلق آدم، خلقت من طين.

---

(١) اسمُ حواء مأخوذ من الحوّة التي تعني السمرة، أو الحمرة التي يشوبها سواد، **وسُميت حواء بذلك الاسم:** لأنّها خلقت من شيء حيّ، وهو زَوْجها آدم، وقيل: لأنّ حواء هي أمٌّ كل حيّ من البشر، وقيل لأنّ حواء كان لونها يميل إلى السمرة.

بينما نقل الخالدي أقوال بعض المفسرين: أنَّ حواء خلقت من نفس آدم، معتمدين في ذلك على ظاهر قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ (النساء: ١) فالمراد بالنفس الواحدة هنا النفس الإنسانيّة التي تمثل الطبيعة البشريّة المكونة من مادة وروح، وليس المراد بالنفس الواحدة آدم، وإنما هي النفس الإنسانيّة التي خلق منها آدم أوّلًا، ثم خلق منها حواء بعد ذلك، ثم بثَّ منهما رجالًا كثيرًا ونساء.

وفي الروايات الإسرائيليّة أنها خلقت من ضلع آدم الأيسر.

ما الصوابُ؟ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ (النساء: ١)

فظاهر الآية أنَّ حواء خلقت من آدم، ولكن دون تعيين هذا الموضع، ثم جاء الحَديث الصحيح يحدد هذا الموضع، حيث قال صلى الله عليه وسلم: " **إنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من ضِلَعٍ، ولن تستقيمَ لكَ على طريقةٍ، فإنْ استمتعتَ بها استمتعتَ بها وفيها عِوَجٌ، وإنْ ذهبتَ تُقيمُها كَسَرْتُها، وكَسْرُها طلاقُها.**" (رواه مسلم: ٢٧٦٢)

فيحتمل أن تكون حواء خلقت من ضلع آدم كما في الحَديث، أو تكون تلك إشارة إلى طبيعة المرأة وفطرتها وروحها وعاطفتها، كما في قوله: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا

تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ (الأنبياء: ٣٧)؛ لذا قال بعده، " **إِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُها كَسَرْتُها، وكَسْرُها طَلاقُها.**" (رواه مسلم: ٢٧٦٢)

والأقرب أن حواء مخلوقة من بعض جسم آدم وهو ضلعه؛ لأنّ حرف الجر (من) تدلّ على التبعيض، والله أعلم.

هل خلقت حواء قبل دخول آدم الجنّة؟

قال ابن كثير: " وسياق الآيات يقتضي أنّ خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنّة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلۡنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ (البقرة: ٣٥)، وهذا قد صرح به إسحاق بن يسار، وهو ظاهر الآيات." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

o آدم وحواء في الجنّة:

أسكن الله آدمَ وزَوْجَه حواء الجنّة، ومتعهما بهذه الجنّة أيما تمتيع، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾[1] (طه: ١١٨ – ١١٩)

(١) كان من اللائق في هذه الآية أن يقول الله تعالى: إن لك ألا تجوع فيها ولا تظمأ، وأنك لا تعرى فيها ولا تضحى، ولكنه عدل عن ذلك لنكتة بديعة: ألا تجوع فيها نفي للعُري الباطن، ولا تعرى نفي للعُري الظاهر، فناسب ذكرهما معًا، ولا تظمأ نفي للحرارة الباطنة، ولا تضحى نفي للحرارة الظاهرة، فناسب ذكرهما معًا، والله أعلم.

فيا ترى ما المقصود بهذه الجنّة؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين مشهورين:

القول الأوّل: الجنّةُ التي أسكن الله فيها آدم وزَوْجه هي جنّة في الأرض، أي أحد البساتين أو الحدائق، ولم تكن جنّة المأوى؛ لأنّه كُلف فيها ألّا يأكل من شجرة واحدة، ولأنّه أخرج منها ودخل إبليس فيها، وهذا ينافي أن تكون جنّة المأوى.

القول الثاني: وهو قول الجمهور: أنها جنّة المأوى التي هي في السماء، **وهذا هو الصواب إن شاء الله لِما يأتي:**

- ظاهر الآيات يدلّ على ذلك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (البقرة: ٣٥)، والألف واللام في الجنّة ليست للعموم ولا لمعهود لفظي، وإنما تعود على معهود ذهني، وهو المستقرّ شرعًا من جنّة المأوى.

- وهو ظاهر الأحاديث – أيضًا – كقول موسى لآدم عليهما السلام: " **فما حَمَلَكَ عَلى أنْ أخرجْتَنا ونفسَكَ مِنَ الجنّةِ.**" (رواه أبو داود: ٤٧٠٢)، وفي حَديث الشفاعة الطويل قال آدم: " **وهلْ أَخْرَجَكُم مِنَ الجنّةِ إلّا خطيئةُ أبيكم آدم.**" (رواه مسلم: ١٩٥)، ومعلوم أن اللوم الأكبر يكون على الخروج من جنّة المأوى.

o شجرةُ المحنة:

سكن آدم وزوجه الجنّة، وأباح الله لهما أن يأكلا من جنّة المأوى رغدًا حيثما شاءا ما عدا شجرة واحدة، نهاهما عن قربانها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ (الأعراف: ١٩)

فما هذه الشجرة؟

اختلف العلماءُ في تسمية هذه الشجرةِ على أقوال، منها: هي الكرمة، وقيل: السنبلة، وقيل: التينة، وقيل: النخلة.

وكما اختلفوا في اسمها اختلفوا – أيضًا – في تعيينها، فذكر أنَّ النهي كان عن جنسها كلها لا عن شجرة واحدة بعينها، وذكر العكس.

والصحيح ما قاله ابن عطية: " وليس في شيء من هذا التعيين ما يَعْضُده خبرٌ، وإنما الصواب أن يُعْتَقد أنَّ الله تعالى نهى آدم عن شجرة، فخالف هو إليها، وعصى في الأكل منها، وقال الشقيري أبو النصر: وكان الإمام والدي – رحمه الله – يقول: يُعلم على الجملة أنها كانت شجرة المحنة." (القرطبي: ٢٠٠٢)

المهم في نهاية الأمر أسكن الله تعالى آدم وزَوْجه الجنّة، وأباح لهما فيها كل شيء إلّا شجرة واحد هي شجرة المحنة، ومن لطف الله بآدم وزَوْجه أن قد بيّن تعالى لهما أن الشيطان عدوٌّ لهما، وحذرهما منه ومن حبائله، ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ (طه: ١١٧)

فهل يحذر آدم وزَوْجه منه؟!

اقرأ الفقرة التالية لتعرف الجواب!

○ إغواء الشيطان لآدم وحواء:

مكث آدمُ وزَوْجُه في الجنّة ما شاء الله على هذا الوصف الذي ذكره الله تعالى: أنه لا يجوع فيها ولا يعرى، ولا يظمأ فيها ولا يضحى، وفي الجملة هو سعيدٌ لا يشقى، أمّا عدوُّهما ظلَّ يراقبهما ويرصدهما، وينتظر الفرصة السانحة لإغوائهما، ولمّا رأى سرورهما بهذه الجنّة، ورغبتهما العظيمة في دوامها، وهو الذي طرد منها بسبب آدم، جاءهما بطريق لطيف في صورة الناصح المشفق الأمين، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠﴾ (طه: ١٢٠) أي: هل أرشدك يا آدم على شجرة مَنْ أكل منها خُلّد في الجنّة، وصار له مُلك لا ينقطع ولا يفنى؟!

ولم يزلِ الشيطان يوسوس قائلًا: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠) وهذا توضيحٌ لوسوسة اللعين، أي قال في وسوسته لهما: " ما نهاكما ربّكما عن الأكل من هذه الشجرة إلّا كراهية أن تكونا ملكين أو تصبحا من المُخلدين في الجنّة." (محمّد الصابوني)

وإمعانًا في المكر من إبليس أقسم اللعين لهما على أنه ما يريد لهما إلّا الخير ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[١] (الأعراف: ٢١)

---

(١) ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي: حلف لهما.

ولعلك تتساءل: كيف خاطب إبليس آدم وزوجه بهذا الكلام وهو مطرود من الجنّة؟

ذكر المفسرون إجابات كثيرة، والحقّ: أنَّ ظاهر القرآن لم يفسر كيف استطاع إبليس أن يخاطبَ آدم وحواء بهذا الخطاب؟ وهو المطرود خارج الجنّة، أكان على هيئته المعروفة أمْ تمثّل لهما؟ وهل دخل الجنّة دخولًا حقيقيًّا أم لم يدخل؟ كل ذلك من الغيب الذي لا يمكننا أن نخوض فيه من غير أثارة من علم، وسوف يأتيك مزيدًا من الحقّ في هذا الموضوع أثناء حديثنا عن الإسرائيليّات في قصة آدم – عليه السلام – إن شاء الله تعالى.

الحاصل كانت نتيجة وسوسة إبليس لآدم وحواء: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾ (الأعراف: ٢٢) أي: أغراهما حتى وقعا في الخطيئة، وأكلا من الشجرة التي نهاهما ربُّهما عنها، وحرّمها عليهما، فما أن أكلا منها حتى حلت عليهما العقوبة في الحال ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ (طه: ١٢١)

يا الله!! بعدما كانا مستورين صارا عاريين، فما كان منهما ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ (طه: ١٢١)، أي: " يلزقان على أبدانهما العارية؛ ليكون بدل اللباس، وسقط في أيديهما." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

ونختم هذه النقطة بهذا السؤال المهم: كيف أطمع إبليسُ اللعين آدمَ النبيَّ الكريمَ أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة، وآدم يرى أن الملائكة لا تأكل ولا تشرب؟!

ثم كيف أطاعه آدم في ذلك، ومع آدم من العلم بالله ونفسه والملائكة ما يمنعه عن ذلك؟!

ذُكر: وقع ذلك من آدم نسيانًا: كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ (طه: ١١٥)، ومعنى النسيان: نقيض الذكر، أو المراد الترك أي ترك الاحتراز عن الشجرة.

ولكن الصواب ما قاله ابن القيم: " إنَّ آدم وحواء لم يطمعا في ذلك أصلًا، وإنما كَذَبَهُما عدوُّ الله، وغرهما، وخدعهما بأن سمى تلك الشجرة بشجرة الخلد، فهذا أوّل المكر والكيد، ومنه ورث أتّباعه تسمية الأمور المحرّمة بالأسماء التي تحبّ النفوس مسمياتها، فسموا الخمر: أمّ الأفراح، وسموا الربا: بالمعاملة، فلمّا سماها شجرة الخلد قال: ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة إلّا كراهة أن تأكلا منها فتخلد في الجنّة، ولا تموتا فتكونا مثل الملائكة، الذين لا يموتون، ولم يكن آدم – عليه السلام – قد علم أنه يموت بعد، واشتهى الخلود في الجنّة، فحصلت الشبهة من قول العدوّ وإقسامه بالله جهد أيمانه أنه ناصحٌ لهما، فاجتمعت الشبهة والشهوة، وساعده القدر، فأخذتهما سِنَة الغفلة، وأكلا من الشجرة." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

نصيحة: كلُّ الذنوب والمعاصي التي تقع من بني آدم بسبب هذين الأمرين الخطيرين: الشبهة والشهوة.

○ توبة آدم وحواء:

وصل بنا المشهد إلى ندم آدم وحواء، فكان ذلك بداية توبتهما، حيث ما أن ناداهما ربهما ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: ٢٢)

عندئذ أوقع الله تعالى في قلوبهما التوبة الصادقة والإنابة الحقّة، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧)، ولم تذكر هذه الآية هنا توبة حواء؛ لأنَّها تبع لآدم في المعصية وفي التوبة، بينما ذكرت آية سورة الأعراف توبتهما جميعًا، وسطرت الكلمات التي تلقاها آدم وحواء من ربّهما، حيث قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣)

هكذا انتهت هذه الجولة من حرب إبليس لآدم بأن تاب الله تعالى على عبده ونبيه آدم، واجتباه ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ (طه: ١٢٢)

قال ابن القيم: " العدوُّ أصرَّ على الذنب، واحتج وعارض الأمر، وقدح في الحكمة، ولم يسأل الإقالة، ولا ندم على الزلّة، أمّا الحبيب فاعترف بالذنب، وتاب وندم وتضرّع واستكان، وفزع الى مفزع الخليفة،

وهو التوحيد والاستغفار، فأزيل عنه العتب، وغفر له الذنب، وقبل منه العتاب، وفتح له من الرحمة والهداية كل باب، ونحن الأبناء ومن أشبه أباه فما ظلم، ومن كانت شيمته التوبة والاستغفار فقد هدي حسن الشيم." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

ونختم هذه النقطة بهذا التصحيحُ المهمُّ: قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ (طه: ١٢١ – ١٢٢)، فهل يجوز أن يقال: كان آدم عاصيًا وغاويًا، أخذًا من ذلك؟

قال الأنصاري: " لا يلزم من جواز إطلاق الفعل، جواز إطلاق اسم الفاعل، ألا ترى أنَّه يجوز أن يقال: تبارك الله، دون متبارك، ويجوز أن يقال: تاب الله على آدم دون تائب."

(زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

o نزول آدم وحواء إلى الأرض:

تاب الله على آدم وحواء، ومحا الذنب الذي أصابا، ولكنّ الأمر الذي حذرهما منه وهو الخروج من الجنّة إن تناولا من الشجرة المنهي عنها قد تحتم ومضى، قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾ (البقرة: ٣٦) أي: فأخرجهما ممّا كان فيه من الحبور والسرور والنعيم إلى دار النصب والتعب والهموم.

فأهبطا إلى الشقاء والكدر، والسعي والنكد، والابتلاء والاختبار والامتحان، واختلاف السكان دينًا وأخلاقًا وأعمالًا وتصوّراتٍ وإراداتٍ،

وأقوالًا وأفعالًا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (الأعراف: ٢٤)

وأخبرهما سبحانه أنه لا بدَّ أن يبتليهما وذرّيّتهما، وأنّ من آمن وعمل صالحًا كانت عاقبته خيرًا من حالته الأولى، ومن كذب وتولّى فآخر أمره الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1] (البقرة: ٣٨ ــ ٣٩)

---

(١) **تساؤل:** تكرر لفظ (اهبطوا) مرّتين: المرّة الأولى في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ (الأعراف: ٢٤)، والمرّة الثانية في قوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٣٨) **فما السرُّ في ذلك؟**

السرُّ في ذلك: أنه تعالى جعل في كل مرّة حكمًا خاصًّا، فناط في المرّة الأولى عداوتهم فيما بينهم، وفي المرّة الثانية الاشتراط عليهم أنّ من تبع هداه الذي ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد، ومن خالفه فهو الشقي." (ابن كثير بتصرف: ٢٠٠٢)

وكان يوم خروج آدم من الجنّة يوم الجمعة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **خيرُ يومٍ طَلَعَتْ عَليهِ الشمسُ يومُ الجمعةِ، فيهِ خُلِقَ آدمُ، وفيهِ أُدْخِلَ الجنّةَ، وفيهِ أُخْرِجَ منها، ولا تقومُ الساعَةُ إلّا في يومِ الجمعةِ.**" (رواه مسلم: ٨٥٤)

وهكذا نزل آدم وحواء الأرض، وذلك لحكمة وهي بثَّ الله منهما رجالًا كثيرًا ونساء، ونشرهم في الأرض، واستخلفهم فيها؛ لينظر كيف يعملون؟!

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ (النساء: ١)

ومن رحمته سبحانه وتعالى أنه حذّر ذرّيّة آدم من الشيطان وحبائله، كما حذّر أبويهم من قبل، فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ (الأعراف: ٢٧)

أي: " لا يغوينكم (يا بني آدم) الشيطان بإضلاله وفتنته، كما أغوى أبويكم بالأكل من الشجرة حتى أخرجهما من الجنّة، فنزع عنهما اللباس لتظهر العورات، ونُسِبَ النزع إلى (الشيطان) لأنّه المتسبب، وهذا هو هدف اللعين أن يهتك الستر عن الإنسان، ويعريه من جميع

الفضائل الحسيّة والمعنويّة، (وأخبر سبحانه) عن الشيطان أنه يبصركم هو وجنوده من الجهة التي لا تبصرونه منها، فهو لكم بالمرصاد فاحذروا كيده ومكره؛ لأنّ جعلنا الشياطين أعوانًا وقرناء للكافرين." (محمّد الصابوني)

- **احتجاج آدم وموسى عليهما السلام:**

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **حاجّ موسى آدمَ، فقالَ: أنتَ الذي أَخْرَجْتَ الناسَ مِنَ الجنّةِ بذنبِكَ وأشقيتَهُم.**

قالَ: قالَ آدمُ: يا موسى أنتَ الذي اصطفاكَ اللهُ برسالتِهِ وبكلامِهِ، أَتَلومُني على أمرٍ كَتَبَهُ اللهُ عليّ قبلَ أنْ يخلُقَني – أو قدّره عليّ قبلَ أنْ يخلُقَني – قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: فَحَجَّ آدمُ موسى." (رواه البخاري: ٤٧٣٨)، وفي رواية: " **فَحَجَّ آدمُ موسى مرّتينِ.**" (رواه البخاري: ٣٤٠٩) أي: غلب آدم موسى بالحُجّة في دفع اللوم مرتين.

ويرد في هذا الاحتجاج بين آدم وموسى مسألة، وهي: **هل يصلح الاحتجاج بالقدر ممّن خالف الشرع؟**

قال ابن العثيمين: " الاحتجاج بالقدر على مخالفة الشرع لا يصلح كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنّة والنظر.

أمّا الكتاب: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾ (الأنعام: ١٤٨)

فأبطل الله حجّتَهم هذه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ (الأنعام: ١٤٨)

وقال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ (النساء: ١٦٥)

فبيّن اللهُ تعالى أنّ الحُجّة قامت على الناس بإرسال الرسل، ولا حجّة لهم على الله بعد ذلك، ولو كان القدر حجّة ما انتفت بإرسال الرسل.

أمّا السنّة: قوله صلى الله عليه وسلم: " **ما منكم مِنْ أحدٍ إلّا وقد كُتِبَ مقعدُهُ مِنَ النارِ ومقعدُهُ مِنَ الجنّةِ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، أفلا نَتَّكِلُ على كتابِنا ونَدَعُ العملَ؟ قال: اعْملوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لمّا خُلِقَ لهُ، أمّا مِنْ كانَ من أهلِ السعادةِ فَيُيَسَّرُ لعملِ أهلِ السعادةِ، وأمّا مَنْ كانَ مِنْ أهلِ الشقاءِ فَيُيَسَّرُ لعملِ أهلِ الشقاوةِ، ثم قرأَ:** ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾ (الليل: ٥ – ١٠)" (رواه البخاري: ٤٦٨٥)

أمّا النظر: تارك الواجب، وفاعل المُحرم، يقدم على ذلك باختياره، لا يشعر أنَّ أحدًا أكرهه عليه، ولا يعلم أنَّ ذلك مُقَدّر؛ لأنّ القدر سرٌّ مكتومٌ، فلا يعلم أحد شيئًا ممّا قدره الله تعالى إلّا بعد وقوعه.

فكيف يصحُّ أن يحتج بحجّة لا يعلمها قبل إقدامه على ما اعتذر بها عنه؟

ولماذا لم يقدر أنَّ الله تعالى كتبه من أهل السعادة، فيعمل بعملهم، دون أن يقدر أنّ الله كتبه من أهل الشقاوة، ويعمل بعملهم؟!

ثم إنَّ هذا المُحتج لو خُيّرَ في السفر بين بلدين أحدهما: مطمئن، والثاني: مضطرب ...؛ لاختار السفر إلى البلد الأوّل، ولا يمكن أن يختار الثاني محتجًا بالقدر، فلماذا يختار الأفضل في مقرّ الدنيا ولا يختاره في مقرّ الآخرة؟" (محمّد بن العثيمين: ١٩٩٢)

وعلى ذلك يكون الحَديث له وجهان، ذكرهما ابن العثيمين:

الأوّل : أنّ موسى لم يعتب على آدم – عليهما السلام – في معصية تاب عنها إلى الله تعالى ...، فإنّ هذا بعيدٌ جدًّا أن يقع من موسى – عليه السلام – وهو أجل قدرًا من أن يلوم أباه ويعتب عليه في هذا، إنما عنى بذلك المعصية التي حصلت لآدم وبنيه، وهي الإخراج من الجنّة الذي قدره الله عليه بسبب المعصية، فاحتج آدم على ذلك بالقدر من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب، لا على المعايب، فهو كقوله: " **احرصْ على ما ينفعُكَ، واستعنْ باللهِ ولا تعجزْ، وإنْ أصابَكَ شيءٌ فلا تقلْ لو أنّي فعلتُ كذا وكذا، ولكن قُلْ قَدَّرَ اللهُ وما شاءَ فعلَ، فإنْ لو تفتحُ عملَ الشيطانِ.**" (رواه مسلم: ٤٩٤٥)

فقد أرشد النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى تفويض الأمر إلى قدر الله بعد فعل الأسباب التي يحصل بها المطلوب ثم يتخلف.

الثاني: الاحتجاج بالقدر على ترك الواجب، أو فعل المحرم بعد التوبة جائز مقبول؛ لأنّ الأثر المترتب على ذلك قد زال بالتوبة، فانمحى به توجه اللوم على المخالفة، فلم يبقَ إلّا محض القدر الذي احتج به لا ليستمرَّ على ترك الواجب، أو فعل المحظور، لكن تفويضًا إلى قدر الله تعالى الذي لا بدَّ من وقوعه.

ومن ذلك حَديث علي أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طرقه وفاطمة ليلة فقال: **ألا تُصليانِ؟**

فقلتُ: يا رسول الله أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إليّ شيئًا، ثم سمعته، وهو مول يضرب فخذه، وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ (الكهف: ٥٤)" (رواه البخاري: ١٠٨٨)

واحتجاجُ عليّ صحيحٌ؛ لذا لم ينكره عليه الرسول صلى الله عليه وسلم." (محمّد بن العثيمين: ١٩٩٢)

- **أَخْذُ ذرّيّة آدم من ظهره:**

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ (الأعراف: ١٧٢)

هذه الآية تخبرنا عن أَخْذِ الله تعالى الذرية من ظهر آدم، فما المقصودُ بأَخْذِ الله الذرّيّة من ظهر آدم؟ وما المقصودُ بإشهادهم على أنفسهم بربوبيّة الله تعالى في هذه الآية؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين مشهورين:

القول الأوّل: المرادُ بأخذ الذرّيّة من ظهر آدم: أخذُها من ظهور بنيه بإخراجها إلى هذه الحياة الدنيا بالولادة المعروفة الناتجة عن التزاوج، واستدلّوا على ذلك بما يأتي:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ حيث لم يقل من آدم، وقال تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهره، وقال تعالى: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي جعل نسلهم جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ (الأنعام: ١٦٥)، وكما قال ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ (الأنعام: ١٣٣)

وأمّا المقصود بإشهادهم على ربوبيّة الله، يكون بما نصب لهم من الدلائل والآيات الشاهدة بذلك في الآفاق وفي أنفسهم، وأنَّ المراد من إقرارهم بذلك هو ما فطروا عليه من التوحيد والاعتراف بالصانع جلّ شأنه.

القول الثاني: المراد بأخذ الذرّيّة من ظهر آدم: أنَّه تعالى مسح بيمينه ظهر آدم، فاستخرج منه ذرّيّته، فأخرج الأجساد فيها الأرواح من ظهر آدم عليه السلام، وأمّا المقصود بإشهادهم على أنفسهم بربوبيّة الله يكون بتكليمهم قُبلًا من الله تعالى: ألست بربّكم؟ فأجابوا: بلى.

وهذا القول هو الصحيح المتعين إن شاء الله؛ لصحة الأحاديث المروية في ذلك، والتي منها:

عن ابن عباس – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " **إنَّ اللهَ أخذَ الميثاقَ من ظهرِ آدمَ – عليه السلام – بنعمان يومَ عرفة، فأخرجَ من صلبِهِ كلَّ ذرّيّةٍ ذرأَها فنثرَها بينَ يديهِ وكَلّمهم قُبلًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ (الأعراف: ١٧٢ – ١٧٣) إلى قوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾**"

(رواه النسائي: (١١١٩١))، وهو حَديثٌ صحيحٌ.

وعن عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، سئل عنها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **إنَّ اللهَ – عزّ وجلّ – خلقَ آدمَ، ثم مَسَحَ ظهرَهُ بيمينِهِ، فاستخرجَ منه ذرّيّةً، فقالَ: خلقْتُ هؤلاءِ للجنّةِ، وبعملِ أهلِ الجنّةِ يعملونَ، ثم مسحَ ظهرَهُ فاستخرجَ منه ذرّيّةً، فقالَ: خلقْتُ هؤلاءِ للنارِ، وبعملِ أهلِ النارِ يعملونَ**، فقال رجل يا رسول الله: ففيمَ العمل؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **إنَّ اللهَ – عزّ وجلّ – إذا خلقَ العبدَ للجنّةِ استعملَهُ بأعمالِ أهلِ الجنّةِ حتّى يموتَ على عملٍ**

من أعمالِ أهلِ الجنّةِ فيدخلُهُ به الجنّةَ، وإذا خلقَ العبدَ للنارِ استعملَهُ بأعمالِ أهلِ النارِ حتّى يموتَ على عملٍ من أعمال أهل النار فيدخلُهُ به النارَ." (رواه أبو داود: (٤٧٠٣))، وهو حديثٌ صحيحٌ.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "**لمّا خلقَ اللهُ آدمَ مسحَ ظهرَهُ، فسقطَ من ظهرِهِ كلَّ نسمةٍ هو خالقُها من ذرّيّتِه إلى يومِ القيامةِ، وجعلَ بين عيني كلِّ رجلٍ منهم وبيصًا من نورٍ ثم عرضَهم على آدمَ، فقال: أي ربِّ مَنْ هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذرّيّتُك، فرأى رجلًا منهم فأعجبَهُ وبيصُ ما بين عينيْهِ، فقال: أي ربِّ من هذا؟ فقال: رجلُ آخرُ الأممِ من ذرّيّتِك يقال له داودُ، فقال: أي ربِّ كم جعلتَ عمرَه؟ قال ستين سنةً، قال: أي ربِّ زِدْهُ من عمري أربعين سنةً، فلمّا انقضى عمرُ آدمَ جاء ملكُ الموتِ، فقال: أو لم يبقَ من عمري أربعون سنةً، قال: أو لم تُعطِها ابنَكَ داودَ؟ قال: فجحدَ فجحدت ذرّيّتُه، ونَسِيَ فنسيت ذرّيّتُه، وخُطِئَ وخُطِئَتْ ذرّيّتُه.**" (رواه الترمذي: (٣٠٧٦))، وهو حَديثٌ صحيحٌ.

وعن ابن عباس أنه قال: " أخرج الله ذرّيّة آدم من ظهره كهيئة الذرّ، وهو في أذى الماء." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

وعن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ قال: أخذ من ظهره كما يأخذ بالمشط من الرأس، فقال لهم ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ﴾**

قالوا بلى، قالت الملائكة: ﴿شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾" (رواه ابن كثير في تفسيره، وصحح وقفه)

هل وقع شرك من آدم وحواء؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٨٩)

قال أبو شبهة: " هذه الآيةُ تعدُّ من أشكل آيات الذكر الحكيم؛ لأنّ ظاهرها يدلُّ على نسبة الشرك لآدم وحواء." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

فهل وقع من آدم وحواء شرك؟

اتّفق العلماء على: أنه لم يقع من آدم وحواء شرك في العبادة قطّ.

ثم اختلفوا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٨٩) **على قولين مشهورين:**

القول الأوّل: ما وقع من آدم وحواء كان شركًا في التسمية فقط، فقد سمى آدم وحواء ولديهما بعبد الحارث بوسوسة إبليس لحواء حين علم موت أولادهما وحرصهما على حياتهم، فزيّن لها أنها إذا سمت ابنها بهذا الاسم عاش ففعلت، وأقرّها آدم على هذه التسمية، وهو ليس

شركًا في العبادة إنما هو شرك في التسمية، وهو خلاف اللائق بهما، ولذا عوتبا عليه.

واستدلوا على ذلك بآثار وأخبار، منها:

ما رواه الإمام أحمد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **لمّا ولدت حواءُ طافَ بها إبليسُ، وكانَ لا يعيشُ لها ولد، فقال سمّيه عبدَ الحارث، فإنه يعيشُ، فسمّته عبدَ الحارثِ فعاشَ، وكانَ ذلك من وحي الشيطانِ وأمره.**" (رواه أحمد: (٢٠١٢٩)، والترمذي: (٣٠٧٧))

وفسّروا الآية هكذا: " ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ المراد بالنفس الواحدة آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء؛ ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليأنس بها ويطمئن، وكان هذا كله في الجنّة، ثم ابتداء بحالة جديدة أخرى هي في الدنيا بعد هبوطهما." (القرطبي: ٢٠٠٢)

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ وذلك ما يكون أوّل الحمل حيث لا تجد المرأة له تعبًا أو وجعًا، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي اِسْتَمَرّتْ بحمله وبان ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ صارت ذات ثقل بحملها، وكبر الولد في رحمها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ الضمير في دعوا يعود على آدم وحواء.

﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي بشرًا سويًّا، قال ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا

لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ (الأعراف: ١٨٩ ـ ١٩٠)

فلمّا رزقهما الله الغلام كما تمنّيا، ووسوس إبليس لحواء، وكانت لا يعيش لها ولد، أن تسميه عبد الحارث – وكان من أسماء الشيطان الحارث– فسمته عبد الحارث فعاش.

القول الثاني: لم يقع شرك من آدم وحواء لا في العبادة ولا في التسمية، **وهذا هو الصحيح الحقّ إن شاء الله.**

قال أبو شبهة: " فالآية الأوّلى في آدم وحواء، وجعل قوله ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ الآية في المشركين من ذرّيّتهما، أي: جعلا أولادهما شركاء لله فيما آتاهما، والمراد بهم الجنس، أي جنس الذكر والأنثى، فمن ثَمّ: حسن قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ بالجمع، ويكون هذا الكلام من الموصول لفظًا المفصول معنى، ومنهم من جعل الآيتين في ذرّيّة آدم وحواء، أي خلقكم من نفس واحدة، وهي نفس الذكر، وجعل منها أي من جنسها: ﴿زَوۡجَهَا﴾ وهي الأنثى، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ أي: بشرًا سويًّا كاملًا جعلا أي الزوجان الكافران لله شركاء فيما آتاهما، وبذلك أبدلا شكر الله كفرانًا به وجحودًا، وعلى هذا: لا يكون لآدم وحواء ذكر في الآيتين." (أبو شبهة: ١٤٠٨)

وأمّا الحَديث المذكور سابقًا فضعيفٌ رواية ودراية.

فمّن حيث ضعف روايته: فقد ذهب جهابذةُ الحَديث، منهم: الحافظ ابن عدي، والحافظ ابن كثير، والألباني، وغيرهم إلى تضعيفه، حتى إن ابن حزم قد قال: وهذا الذي نسبوه إلى آدم – عليه السلام – من أنه سمّى ابنه عبد الحارث خرافة موضوعة مكذوبة، من تأليف من لا دين له ولا حياء، لم يصحّ سندها قطّ، وإنما نزلت في المشركين على ظاهرها.

وأمّا من جهة ضعف درايته: فإنه لم يثبت أنَّ إبليس كان اسمه الحارث، ثم ليس هناك ما يدلُّ على أنَّ آدم كان يموت له أولاد في حياته غير الابن المقتول.

الحاصل الصحيح: لم يقع شركٌ من آدم وحواء لا في العبادة ولا في التسمية.

○ قصّة ابني آدم:

قصَّ الله علينا في قرآنه الكريم قصّةً تظهر جليًّا الصراع الدفين بين الخير والشرّ، قصَّ علينا قصّةً تطلّ من بين ثنايا التاريخ الغابر حاملة أحداثًا مروعة، ونتائج مفجعة، فتلك المرة الأولى التي يلتقي فيها الضدان (الخير والشرّ)، ولن تكون الأخيرة في هذا الصراع الأبدي السرمدي إلى أنَّ يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، التقيا كفاحًا بدون تخفٍ أو إنذار.

إنها قصّة ابني آدم، أو قل: قصّة الحسد، والظلم، والبغي.

وتبدأ هذه القصّةُ بمطلع فخم بهي: حيث قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾ (المائدة: ٢٧) أي: يا محمّد، اقصص على اليهود البغاة الحسدة خبر ابني آدم بالحقّ والصدق.

ثم يبدأ القرآن بسرد هذا الخبر الخطير بخبر تقديم ابني آدم قربانين قال تعالى: ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا﴾ (المائدة: ٢٧)

ولِمَ قدما هذين القربانين؟

ذكر المفسرون أنّ سبب تقريب هذين القربانين، هو: " أنه كان لا يولد لآدم مولود إلّا ومعه جارية، فكان يُزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويُزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما قابيل وهابيل، وكان قابيل صحاب زرع، وكان هابيل صاحب ضرع، وكان قابيل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وأنَّ هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه، وقال: هي أختي ولدت معي، وهي أحسن من أختك، وأنا أحقّ أن أتزوج بها، وأنهما قربا قربانًا إلى الله – عزّ وجلّ – أيهما أحقّ بالجارية، فقرب هابيل جذعة سمينة، وقرب قابيل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها، وأكلها، فنزلت النار، فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي، فقال هابيل: **إنما يتقبل الله من المتقين.**" (ابن كثير: ١٩٨٧)

والذي يظهر إنّ هذه الرواية من الإسرائيليّات، والتي هي في أحسن أحوالها أنها لا تصدق ولا تكذب؛ لذا تجنيب تفسير كلام الله بها

أصوب، لاسيما أن قصّة ابني آدم واضحة جليّة، ولا تحتاج إلى مثل هذه الروايات الواهية التي لا تضيف لها أي فائدة حقيقيّة؛ لذا الصواب أن يقال: قدم ابني آدم قربانين، والله أعلم ما الذي قدماه؟! ولِمَ قدماه؟!

الحاصل: أنّه قد تقبل قربان أحدهما دون الآخر، قال تعالى: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأَخَرِ﴾ (المائدة: ٢٧) ممّا آثار ذلك حفيظة الأخ المردود قربانه، فثارت نفسه، وغلى دم قلبه طلبًا للانتقام، وانتشر في عروقه حبُّ التشفي والانتصار، فعمى بصره، وطمّ سمعه، ونطق لسانه بطغيان: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ (المائدة: ٢٧)

فردّ عليه أخوه بوداعة ونصح: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢)[1]

ويكمل الأخ الوديع الناصح موعظته لأخيه، لعلّه يقلع عمّا عزم عليه وقصده، قال: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨﴾ (المائدة: ٢٨)

ولكن – ويا للأسف – لم تجدِ هذه النصيحة الصادقة نفعًا مع أخيه الثائر، عندها لم يجد الأخ المقتول بدًّا من تغليظ نصحه وإرشاده،

---

(١) قال الرازي: "عندما قال قابيل: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ فقال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ففي الكلام حذف، والتقدير كأن هابيل قال: لِمَ تقتلني؟ قال: لأنّ قربانك صار مقبولًا، فقال هابيل: ما ذنبي؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢) (الفخر الرازي)

لعلَّ أخاه يقلع عمّا عزم عليه ونواه، فقال: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ (المائدة: ٢٩) أي: أريد أن تكون عليك خطيئتي ودمي فتبوء بهما جميعًا." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وحذره من مغبة قصده ومبتغاه، فقال: ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (المائدة: ٢٩) قال ابن عباس: " خوّفه بالنار فلم ينته، ولم ينزجر." (ابن كثير: ١٩٨٧)

لم يكترثِ الأخ الظالم بموعظة أخيه الصادقة، بل ترجم حسده إلى فعل، فجاءت الفاجعة!

﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ (المائدة: ٣٠)

قال القاسمي: " رخّصت وسهّلت له نفسُه، والتصريح بأخوته لكمال تقبيح ما سوّلته نفسه، أي الذي حقّه أن يحفظه من كل مَنْ قصده بالسوء، قد قتله!" (محمود المصري: ٢٠٠١)

يقول عبد الحميد كشك: " القاتل مهما كانت نفسه ملوثة بحبّ الانْتقام والقتل، يرى في الإقدام على هذا العمل جرمًا وفظاعة، فيتردّد، ولا يزال كذلك حتى تشجعه نفسه الأمارة بالسوء، فطوّعت له نفسه قتل أخيه وهدم ما بناه الله وأتقنه فأصبح من الخاسرين." (عبد الحميد كشك)

بعد هذا الطغيان والظلم تأتي العاقبة: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (المائدة: ٣٠) أي: خسر الدارين، وأسخط الوالدين، وباء بالعذابين في الدنيا والآخرة.

يقول الرازي: " خسر دنياه وآخرته، أمّا الدنيا فهو أنه أسخط والديه، وبقي مذمومًا إلى يوم القيامة، وأمّا الآخرة فهو العقاب العظيم." (الفخر الرازي)

قال صلى الله عليه وسلم: " **لا تُقتلُ نفسٌ ظلمًا إلّا كان على ابنِ آدمَ الأوّلِ كِفْلٌ من دمِها؛ لأنّه كان أوّلُ من سنَّ القتلَ.**"

(رواه مسلم: ٣٢٤٩)

بعدما هدأت ثورة نفس ابن آدم القاتل، فإذا بالجريمة ماثلة أمام عينه في صورة سوءة أخيه (جسده)، فوقف عاجزًا أمامها وهو لا يدري ماذا يفعل بها؟! فازداد همًّا فوق همّ وغمًّا فوق غمّ، وحسرة فوق حسرة!

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾ (المائدة: ٣١)

يقول محمّد رشيد رضا:

" بعث الله غرابًا إلى المكان الذي هو فيه، فبحث في الأرض أي: حفر برجليه فيها يفتش عن شيء، والمعهود أنَّ الطير تفعل ذلك لطلب الطعام، والمتبادر من العبارة أنّ الغراب أطال البحث في الأرض؛ لأنّه قال يبحث ولم يقل بحث، والمضارع يفيد الاستمرار، فلمّا طال البحث أحدث حفرة في الأرض، فلمّا رأى القاتل الحفرة – وهو متحيرٌ في أمر مواراة سوءة أخيه – زالت الحيرة، واهتدى إلى ما يطلب، وهو دفن أخيه في حفرة من الأرض، هذا هو المتبادر من الآية، وقال أبو مسلم:

إنَّ من عادة الغراب دفن الأشياء، فجاء غراب، فدفن شيئًا، فتعلّم منه ذلك، وهذا قريب أيضًا، ولكن جمهور المفسرين قالوا: إنَّ الله بعث غرابين لا واحد، وأنهما اقتتلا فقتل أحدهما الآخر، فحفر بمنقاره ورجليه حفرة ألقاه فيها! وما جاء هذا إلّا من الروايات التي مصدرها الإسرائيليّات." (محمود المصري: ٢٠٠١)

على كل حال: عندما تبيّن للأخ القاتل كيف يواري سوءة أخيه المقتول من الغراب، صرخ: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ (المائدة: ٣١) وهي كلمة تحسر ﴿أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ (المائدة: ٣١)

قال الحسن البصري: " علاه الله بندامة بعد خسران."

(ابن كثير: ١٩٨٧)

وأُسدلَّ الستار على هذه القصّة المفجعة بقول الله تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾ (المائدة: ٣٢)

قال قتادة: "عظم والله أجرها، وعظم وزها! فأحيها يا ابن آدم بمالك، وأحياها بعفوك إن استطعت، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله."

(ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

- **الإسرائيليّات والموضوعات في قصّة آدم عليه السلام:**

وردت في قصّة آدم رواياتٌ إسرائيليّةٌ منكرةٌ كاذبةٌ شوهت جمال القصّة، وأضاعت الفائدة منها، ومن هذه الروايات الإسرائيليّة ما رواه ابن جرير في تفسيره بسنده عن وهب بن منبه، قال:

" لمّا أسكن الله آدم وذرّيّته أو زَوْجه – الشكّ من أبي جعفر – وهو في أصل كتابه (وذرّيّته) ونهاه عن الشجرة، وكانت شجرة غصونها متشعبة بعضها في بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم، وهي الثمرة التي نهى الله آدم عنها وزَوْجه، فلمّا أراد إبليس أن يستزلهما دخل في جوف الحيّة، وكانت للحيّة أربعة قوائم كأنها بختية (أي: ناقة) من أحسن دابّة خلقها الله، فلمّا دخلت الحيّة الجنّة، خرج من جوفها إبليس، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزَوْجه، فجاء بها إلى حواء فقال: انظري إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها! وأطيب طعمها! وأحسن لونها! فأخذت حواء منها فأكلت، ثم ذهبت إلى آدم فقالت له: مثل ذلك، حتى أكل منها، فبدت لهما سوآتهما، فدخل آدم في جوف الشجرة، فناداه ربُّهُ: يا آدم، أين أنت؟ قال: أنا هنا يا ربّ، قال: ألا تخرج؟ قال: أستحيي منك يا ربّ، قال: ملعونة الأرض التي خلقت منها، لعنة يتحول عمرها شوكًا، ثم قال: يا حواء، أنتِ التي غررت عبدي، فإنكِ لا تحملين حملًا إلّا حملتيه كرهًا، فإذا أردتِ أن تضعي ما في بطنك:

أشرفتِ على الموت مرارًا، وقال للحيّة: أنتِ التي دخل الملعون في جوفك، حتى غرّ عبدي، ملعونة أنتِ لعنة تتحول قوائمك في بطنك، ولا يكن لك رزقٌ إلّا التراب، أنتِ عدوّة بني آدم وهم أعداؤك، قال عمرو: قيل لوهب وما كانت الملائكة تأكل!! قال: يفعل الله ما يشاء."

(ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

وآثارُ الكذب والافتراء ظاهرةٌ بيّنةٌ في هذا الأثر.

قال أبو شهبة: " ويرحم الله ابن جرير، فقد أشار بذكره الرواية عن وهب إلى أنَّ ما يرويه عن ابن عباس، وابن مسعود، إنما مرجعه إلى وهب وغيره من مسلمة أهل الكتاب، ويا ليته لم ينقل شيئًا من هذا!! ويا ليت من جاء بعده من المفسرين صانوا تفاسيرهم عن مثل هذا."

(محمّد أبو شهبة: ١٤٠٨ هـ)

ومن الإسرائيليّات المكذوبة ما رواه ابن جرير في تفسيره، وذكره السيوطي: " من أنّ آدم لمّا قتل أحد ابنيه الآخر، مكث مئة عام لا يضحك حزنًا عليه، فأتى على رأس المئة فقيل له: حياك الله، وبياك، وبشّر بغلام، فعند ذلك ضحك." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨ هـ)

وهذا كذب وهذيان!!

ومن الكذب ما نسب إلى ابني آدم لمّا قتل أحدهما الآخر:

فقد ذكر ابن جرير والسيوطي في تفسيرهما: أنَّ الدم الذي على جبل قاسيون هو دم ابن آدم! وهذا كذب.

قال أبو شبهة: " وعن وهب أنّ الأرض نشفت دمَ ابن آدم المقتول، فلعن ابن آدم الأرض، فمن أجل ذلك لا تنشف الأرض دمًا

بعد هابيل إلى يوم القيامة، وأنّ قابيل حمل هابيل سنة في جراب على عنقه، حتى أنتن وتغير، فبعث الغرابين قتل أحدهما الآخر، فحفر له، ودفنه برجليه ومنقاره، فَعَلّمه كيف يصنع بأخيه، مع أنَّ القرآن عبر بالفاء التي تدلّ على الترتيب والتعقيب من غير تراخ، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾ (المائدة: ٣١)" (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨ هـ)

ومن الموضوعات في قصّة آدم:

قال أبو شبهة: " ما أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، والحاكم، وأبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل، وابن عساكر، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **لمّا أذنب آدم الذنب الذي أذنبه رفع رأسه إلى السماء، فقال: أسالك بحقّ محمّد إلّا غفرت لي، فأوحى الله إليه، ومن محمّد؟ فقال: تبارك اسمك، لمّا خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، فعلمت أنه ليس أحدًا أعظم عندك قدرًا ممّن جعلت اسمه مع اسمك، فأوحى الله إليه: يا آدم، إنه آخر النبيّين من ذرّيّتك، ولولا هو ما خلقتك.**[(١)] " (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

والحَديث من جهة الرواية لا يصحُّ، ومن جهة الدراية به مبالغة غير مقبولة.

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط: (٦٥٠٢)

وذُكر أنّ الكلمات التي تلقاها آدم من ربّه هي: اللهمَّ أني أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد، سبحانك لا إله إلّا أنت، عملت سوءًا، وظلمت نفسي فاغفر لي، إنك أنت الغفور الرحيم، اللهم إني أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد سبحانك لا إله إلّا أنت عملت سوءًا، وظلمت نفسي، فتبْ عليّ إنك أنت التواب الرحيم، فهؤلاء الكلمات التي تلقى آدم."

قال أبو شبهة: " ومثل هذا عليه أمارات الوضع والاختلاق."

(أبو شبهة: ١٤٠٨ هـ)

والصحيح: أنَّ الكلمات التي تلقاها آدم من الله هي: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣)

وكذلك ما روي عن آدم أنه رثى ابنه بشعر، قال الألوسي: " روي عن ميمون بن مهران عن الحبر ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال:

من قال: آدم – عليه السلام – قد قال شعرًا فقد كذب، إنَّ محمّدًا – صلى الله عليه وسلم – والأنبياء كلهم في النهي عن الشعر سواء."

(محمّد أبو شهبة: ١٤٠٨ هـ)

o o o o

الفصل الثاني

الفوائد المستفادة من قصة آدم عليه السلام

قال تعالى:﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (يوسف: ١١١)

الفوائد المستفادة من قصّة آدم – عليه السلام –

o **تمهيد:**

قصّةُ آدم كغيرها – من قَصص الأنبياء والمرسلين – ليست للتسلية أو السمر وإنما لأخذ العبر والعظات، وللاقتداء بهؤلاء الأطهار الأتقياء الأنقياء، والسير على دربهم، فاطّلاعنا على سيرهم، وما تحملوه من أذى في سبيل الله تقويّة لعزائمنا، وتصحيح لهممنا، وتسلية لنا **عمّا يصيبنا** من اللأْواء.

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (يوسف: ١١١)

o **الفوائد المستفادة من قصّة آدم عليه السلام:**

١. ما المقصود بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " فإنَّ الله خلقَ آدمَ على صورته."؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **لا يقولنَّ أحدُكم لأحدٍ قبّح اللهُ وجهَك، ووجهًا أشبهَ وجهَك، فإنَّ اللهَ خلقَ آدمَ على صورتِهِ.**" (رواه مسلم: ٢١٦٢)

قال ابن خزيمة رحمه الله: توهم بعضُ من لم يتحر العلم أن قوله: " **على صورته** " يريد صورة الرحمن – عزّ ربّنا وجلّ – عن أن يكون هذا معنى الخبر، بل معنى قوله " **خلق آدم على صورته** " الهاء في

هذا الموضع كناية عن اسم المضروب، والمشتوم، أراد صلى الله عليه وسلم أنّ الله خلق آدم على صورة هذا المضروب، الذي أمر الضاربّ باجتناب وجهه بالضرب، والذي قبح وجهه."

(محمّد بن خزيمة: ٢٠٠٢)

فزجر – صلى الله عليه وسلم – أن يقول: ووجه من أشبه ووجهك، لأنّ وجه آدم شبيه وجوه بنيه، فإذا قال الشاتم لبعض بني آدم: قبّح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، كان مُقبّحًا وجه آدم – صلوات الله عليه وسلامه – الذي وجوه بنيه شبيهة بوجه أبيهم، فتفهموا – رحمكم الله – معنى الخبر، لا تغلطوا ولا تغالطوا فتضلوا عن سواء السبيل، وتحملوا على القول بالتشبيه الذي هو ضلال." (محمّد بن خزيمة: ٢٠٠٢)

أمّا قوله صلى الله عليه وسلم: " **لا تقبّحوا الوجهَ فإنَّ ابنَ آدمَ خُلِقَ على صورةِ الرحمن.**"

(أخرجه ابن أبي عاصم: (٥١٧)، وقال الألباني: ضعيف)

قال ابن خزيمة: ومثل هذا الخبر، لا يكاد يحتج به علماؤنا من أهل الأثر، لا سيما إذا كان هذا الخبر في مثل هذا الجنس، فيما يوجب العلم لو ثبت، لا فيما يوجب العمل بما قد يستدلّ على صحته وثبوته بدلائل من النظر، وتشبيه، وتمثيل بغيره من سنن النبي – صلى الله عليه وسلم – من طريق الأحكام والفقه.

فإنْ صحَّ هذا الخبر ....، فمعنى هذا الخبر عندنا أنَّ إضافة الصورة إلى الرحمن في هذا الخبر إنما هو من إضافة الخلق إليه؛ لأنّ الخلق يضاف إلى الرحمن، إذ الله خلقه، وكذلك الصورة تضاف إلى

الرحمن؛ لأنّ الله صوّرها، ألم تسمع قوله عزّ وجلّ: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ١١﴾ (لُقْمان: ١١)، فأضاف الله الخلق إلى نفسه، إذا الله تولّى خلقه، وكذلك قول الله ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ (الأعراف: ٧٣)، فأضاف الله الناقة إلى نفسه ....، فما أضاف الله إلى نفسه على معنيين:

أحدهما: إضافة الذات.

والآخر: إضافة الخلق.

فتفهموا هذين المعنيين لا تغالطوا، فمعنى الخبر إن صحَّ من طريق النقل مسندًا، فإن ابن آدم خلق على الصورة التي خلقها الرحمن، حين صوّر آدم، ثم نفخ فيه الروح قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ (الأعراف: ١١)، والدليل على صحة هذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم: " **خلقَ اللهُ آدمَ على صورته، طولُه ستُّونَ ذراعًا، فلمّا خلقَه، وقال: اذهبْ فسلِّم على أولئكَ النفرِ، وهم نفرٌ من الملائكةِ جُلوسٌ، فاسمعْ ما يُحيُّونك، فإنها تحيُتك وتحيةُ ذرّيّتِك قال: فذهبَ فقال: السلامُ عليكم، فقالوا: السلامُ عليك ورحمةُ اللهِ، فزادوه (ورحمةُ اللهِ) قال: فكل من يدخلُ الجنّةِ على صورةِ آدمَ طولُهُ ستُّون**

ذراعًا، فلم تَزَلِ الخلقُ تنقصُ حتّى الآنَ."[1] (محمّد بن خزيمة: ٢٠٠٢)

قال ابن خزيمة:

" فصورة آدم ستّون ذراعًا، التي أخبر النبي أنَّ آدم – عليه السلام – خلق عليها، لا على ما توهم بعض من لم يتحر العلم، فظنَّ أنَّ قوله " **على صورته**": صورة الرحمن، صفة من صفات ذاته، جلّ وعلا، عن أن يوصف بالموتان والأبشار، قد نزّه الله نفسه وقدّس عن صفات المخلوقين، فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ (الشورى: ١١)

وهو كما وصف نفسه في كتابه على لسان نبيّه، لا كصفات المخلوقين من الحيوان، ولا من الموتان، كما شبه الجهميّة معبودهم بالموتان، ولا كما شبه الغالية من الروافض معبودهم ببني آدم، قبّح الله هذين القولين وقائلهما." (محمّد بن خزيمة: ٢٠٠٢)

٢. لماذا جعل الله آدم آخر المخلوقات؟

قال ابن القيم: كان أوّل المخلوقات القلم؛ ليكتب المقادير قبل كونها، وجعل آدم آخر المخلوقات، وفي ذلك حِكَم:

– تَمْهيد الدار قبل الساكن.

– أنه الغاية التي خُلِقَ لأجلها ما سواه من السموات والأرض والشمس والقمر والبَرّ والبحر.

(١) رواه البخاري: (٦٢٢٧)، ومسلم: (٢٨١٤))

– أنَّ أحذق الصناع يختم عمله بأحسنه وغايته كما يبدأه بأساسه ومبادئه.

– أنَّ الله سبحانه أخّر أفضل الكتب والأنبياء والأمم إلى آخر الزمان، وجعل الآخرة خيرًا من الأولى، والنهايات أكمل من البدايات، فكم بين قول الملك للرسول: اقرأ، فيقول: ما أنا بقارئ، وبين قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ (المائدة: ٣)

– أنه خلاصة الوجود وثمرته، فناسب أن يكون خلقه بعد الموجودات. (ابن القيم: ١٤٢٢ هـ)

٣. أدب العلم:

" الواجب من سئل عن علم لم يعلمه أن يقول: الله أعلم ولا أدري، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء." (القرطبي: ٢٠٠٢)

فالملائكة قالت: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣٢)

وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يجيب عن أسئلة كثيرة حتى يأتيه الوحي بالجواب، مثل سؤاله عن أهل الكهف والروح وغيرهما.

" وروي أن رجلًا سأل الرسول – صلى الله عليه وسلم – أي البقاع شرّ؟ **قال: لا أدري حتّى أسألَ جبريل، فسأل جبريل**، فقال: لا

أدري حتى أسأل ميكائيل، فجاء فقال: خيرُ البقاع المساجد وشرُّها الأسواق."[1] (القرطبي: ٢٠٠٢)

" وقال الصدّيق للجدّة: ارجعي حتى أسأل الناس.

وكان علي يقول: وابردها على الكبد ثلاث مرّات، قالوا: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: أن يسأل الرجل عمّا لا يعلم فيقول: الله أعلم." (القرطبي: ٢٠٠٢)

ومثله كثير من الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين، قال ابن عبد البر: " من بركة العلم وآدابه الإنصاف فيه، ومن لم يُنصف لم يفهم ولم يتفهم." (القرطبي: ٢٠٠٢)

والإنصاف في العلم أن تقول عمّا لا تعرفه: لا أدري.

روي عن يونس بن عبد الأعلى: " سمعت ابن وهب يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: ما في زمننا شيء أقل من الإنصاف." (القرطبي: ٢٠٠٢)

قال القرطبي: " هذا في زمن مالك، فكيف في زماننا اليوم الذي عمَّ فينا الفساد وكثر فيه الطغام! وطُلب فيه العلم للرياسة لا للدراية، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذي يُقْسي القلب ويورث الضغن ....، أين هذا ممّا روى عن عمر وقد قال: لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية، ولو كانت بنت ذي العَصَبة يعني يزيد بن الحصين الحارثي، فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال، فقامت

---

(١) أخرجه الطبراني: (٤٠٠٢)

امرأة من صوب النساء طويلة فيها فطس، فقالت: ما ذلك لك! قال: ولِمَ؟ قالت: لأنّ الله – عزّ وجلّ – يقول: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ (النساء: ٢٠) فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وهذا في زمان القرطبي! فكيف في زماننا نحن الآن؟!

وقال يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأحسن:

إذا ما تَحدّثتُ في مَجْلِسٍ * * * تَناهى حَديثي إلى ما عَلِمتُ

ولم أَعُدُ عِلمي إلى غَيرِهِ * * * وكان إذا ما تَناهى سَكَتُّ

٤. فضل العلم وأهله:

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣٣)

في الآية السابقة دليل على فضل العلم وأهله، حيث مدح الله تعالى آدم بالعلم، فالعلم النافع يشرف به الإنسان، ولو كان هذا العلم من العلوم الدنيويّة، فكيف بعلم العلوم الشرعيّة؟!

وفي الحَديث: " **وإنَّ الملائكةَ لتضع أجنحَتها رضًى لطالب العلم.**" (رواه أبو داود: ٣٦٤١) " أي: تخضع وتتواضع، وإنما تفعل ذلك لأهل العلم خاصّة من بين سائر عيال الله؛ لأنّ الله تعالى ألزمها ذلك في آدم عليه السلام، فتأدبت بذلك الأدب، فكلما ظهر لها عِلمٌ في بشر

خضعت له، وتواضعت، وتذلّلت إعظامًا للعلم وأهله، ورضًى منهم بالطلب له، والشغل به، هذا في الطلاب منهم فكيف بالأحبار فيهم والربّانيين منهم! جعلنا منهم وفيهم، إنه ذو فضل عظيم."

(القرطبي: ٢٠٠٢)

٥. أيما أفضل الملائكة أم بنو آدم؟

اختلف العلماء: أيما أفضل الملائكة أو بنو آدم؟ على قولين مشهورين:

القول الأول: قال القرطبي: " فذهب قوم إلى أنّ الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وحجتهم في ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ (البينة: ٧)

وقوله صلى الله عليه وسلم: " **إنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم.**" (رواه أبو داود: ٣٦٤١)

" وبما جاء في أحاديث من أنَّ الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة، ولا يباهي إلا بالأفضل." (القرطبي: ٢٠٠٢)

القول الثاني: إنَّ الملائكة أفضل من البشر، واحتجوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٦ – ٢٧)

وغيرها من الآيات، وبقول الرسول: " **يقول الله عز وجل: ....، من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم.**" (رواه مسلم: ٤٩٦١)

والصحيح: " (أنه) لا طريق إلى القطع بأنَّ الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأنَّ الملائكة خير منهم." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وبالجملة: هذا علم لا يضر الجهل به، ولا ينفع العلم به!

٦. الغيب سرّ مكتوم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣٣)

دلّت الآية السابقة الشريفة على أنَّ الغيب سرٌّ مكتوم لا يعلمه إلّا الله وحده، فلا يعلم الغيب لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب إلا ما أعلمه الله.

قال القرطبي: " فالمنجمون، والكهان، وغيرهم كذبة، وقال ابن عباس: في قوم يكتبون أبا جاد أي حروف أبجد، وهي حروف الهجاء، فيكتبون الحروف، ويضمونها إلى بعض، ويقولون: يقع كذا ويقع كذا، وينظرون في النجوم، ما أرى منه فعل ذلك عند الله من خلاق (أي: نصيب)، ومجموع ما ذكر عن الكهان الذين يدعون علم الغيب هم مذمومون." (القرطبي: ٢٠٠٢)

٧. الاستكبار خلق مُشين:

الاستكبارُ وهو الاستعظامُ خلقٌ مشينٌ، وإبليس – لعنه الله – أوّل مَنِ استكبر فَقد كَرِهَ السجود، واستعظمه في حقّ آدم، وقد صرح اللعين بهذا المعنى، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾

(الأعراف: ١٢)، وقوله: ﴿قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينًا﴾ (الإسراء: ٦١)، وقوله: ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ٣٣﴾ (الحجر: ٣٣)

قال القرطبي: " فكفّره الله بذلك، فكلُّ من سفّه شيئًا من أوامر الله تعالى، وأوامر الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان حُكْمُه حُكْمَه وهذا لا خلاف فيه." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وعن هذا الكبر عبر – صلى الله عليه وسلم – بقوله: **لا يدخلُ الجنّةَ من كان في قلبه مثقالُ ذرّةٍ من خردلٍ من كبر.** قال رجل: إنّ الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة قال: " **إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمال، الكبرُ بطر الحقّ وغمط الناس.**"[1] (رواه مسلم: ١٦٠)

٨. أكان إبليس من الملائكة أم من الجنّ؟

اختلف في ذلك على قولين:

القول الأوّل: إنَّ إبليس كان من الملائكة، فلمّا عصى الله غضب عليه، فلعنه فصار شيطانًا.

القول الثاني: إنَّ إبليس لم يكن من الملائكة قطّ، وهذا هو الصواب لعدّة وجوه، منها:

– إنَّ إبليس عصى ربَّه، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

---

(١) " **(بطر الحق)** أي، تسفيهه وإبطاله، **(وغمط الناس)** أي: احتقار الناس، وازدراؤهم." (القرطبي: ٢٠٠٢)

- إنَّ إبليس خلق من نار وبينما خلقت الملائكة من نور.
- إبليس له ذرّيّة والملائكة لا ذرّيّة لهم؛ لأنّهم لا يتناكحون، ولا يوصفون بذكورة ولا أنوثة.

وقد حسمت آيةُ الكهف هذا الخلاف ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ (الكهف: ٥٠)

وهل إبليس هو أوّل من كفر؟

اختلف في ذلك أيضًا، فقيل: كان قبله كفار، وهم الجنّ وهم الذين كانوا على الأرض.

وذكر: نعم، إبليس أوّل من كفر، وهذا الصواب، والله أعلم.

واختلف – أيضًا – أكان كفر إبليس جهلًا أم عنادًا؟

قال القرطبي: " وذلك على قولين بين أهل السنّة – ولا خلاف أنه كان عالمًا بالله تعالى قبل كفره – فمن قال إنه كان كفره جهلًا، قال: سُلب العلم عند كفره، ومن قال كان كفره عنادًا، قال: كفر ومعه علمه.

وقال ابن عطية: " والكفرُ (عنادًا) مع إبقاء العلم مستبعدٌ، إلّا أنه عندي جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن يشاء." (القرطبي: ٢٠٠٢)

٩. الحكمة من خلق إبليس:

ذكر ابن القيم حكمًا وأحكامًا مترتبة على خلق إبليس، منها:

- تظهر للعباد قدرة الربّ تعالى على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات التي هي من أخبث الذوات، وسبب كلّ شرّ في مقابلة ذات جبريل – عليه السلام – التي هي من أشرف الذوات

وأطهرها وأزكاها، وهي سبب كل خير، وظهرت قدرته سبحانه – أيضًا – في خلق الليل والنهار، والدواء والداء، والحياة والموت، والحسن والقبيح، وغير ذلك ممّا يدلّ أعظم الدلالة على كمال قدرته سبحانه وتعالى.

– ظهور آثار أسماء الله القهّريّة، مثل: القهّار، والمنتقم، وشديد العقاب، وسريع الحساب، ذي البطش الشديد، المعزّ والمذلّ، فهذه الأسماء والأفعال لا بدّ من وجود ما تتعلق به، ولو كان الجنّ والإنس على طبيعة الملائكة لم تظهر هذه الأسماء.

– ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه، وعفوه، ومغفرته، وستره، وتجاوزه عن حقّه، وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد.

– ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فهو يعزُّ مَنْ يشاء، ويذلُّ مَن يشاء، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم بمَنْ يصلح لقبولها، ويشكر له جميل صنعه.

– إظهار واستخراج العبوديات المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما ظهرت، كالجهاد، والموالاة، والمحبّة في الله، والبغض في الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتوبة إلى الله والرجوع إليه، ومخالفة عدوّ الله، والاستعاذة بالله منه، والاتّعاظ والحذر من الغرور.

(محمّد ياسين: ١٩٩١)

١٠. الرجل لباس للمرأة وسكن لها:

" المسلمُ الحقُّ الصادق ملزم بعد زواجه بالسير على هدي الإسلام العالي في معاشرته لزَوْجه وتعامله معها، ولقد أوصى الإسلام بالمرأة، وأحلها مكانة ما عرفتها يقينًا في غير هذا الدين.

فها هو ذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يهيب بالرجال جميعًا:

" **استَوْصُوا بالنساء خيرًا فإنهن خلقنّ من ضِلَعٍ، وإنّ أعوجَ شيءٍ في الضلَعِ أعلاه، فإنْ ذهبت تقيمُه كَسَرْتَهُ، وإنْ تركته لم يَزَلْ أعوجَ فاستوصوا بالنساء خيرًا.**" (رواه البخاري: (٥١٨٦)، ومسلم: (٢٧٦٢))

وفي رواية لمسلم: " **إنَّ المرأة خلقت من ضلع، ولن تستقيمَ لك على طريقة، فإنْ استمتعتَ بها استمتعتَ بها وفيها عِوَج، وإنْ ذهبت تقيمُها كَسَرْتُها، وكسّرُها طلاقُها.**" (رواه مسلم: ١٤٦٨)

إنْ تأمّلت التمثيل النبوي البليغ ستجد فيه بيان رائع لحقيقة المرأة ومزاجها الذي فطرت عليه، فهي لا تستقيم على حال واحدة كما يريد الزوج أبدًا، فينبغي أن يعلم الزوج المسلم أنَّ ذلك فيها سجية وطبع وخليقة، فلا يحاولنَّ أن يقيمها على الجادّة التي وقر في ذهنه أنها الصواب والكمال، وليراعي مزاجها الأنثوي الخاصّ، وليقبلها كما خلقها الله، وفيها عوج عمّا يريد ويرغب في بعض الأمور، وإنْ أبى إلّا أن يقيمها على إرادته ومزاجه، فمثله كمثل من أبى إعوجاء الضلع فراح يقيمه، فإذا هو ينكسر بين يديه، وكسّر المرأة طلاقها!

ولله درّ حاجب بن ذبيان:

هِيَ الضِّلَعُ العَوْجاءُ لَسـتَ تُقيمُها   ألا إنَّ تَقْويمَ الضُّلوعِ انْكِسارُها
أَيَجمعْنَ ضَعفًا واقْتِدارًا عَلى الفَتى   أليسَ عَجيبًا ضَعفُها واقْتِدارُها

فحينما يستقرُّ في وجدان الزوج المسلم الصادق هذا الهديُّ النبويُّ المبنيُّ على تفهّم عميق لنفسيّة المرأة ومزاجها، يتسامح في كثير من هفوات زَوْجه، ويغضّ الطرف عن عديد من هنواتها، تقريرًا منه لخلقتها وفطرتها، فإذا بيت الزوجية آمن هادئ سعيد لا صراخ فيه، ولا صخب ولا خصام.

وتبلغ عناية الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالمرأة أنه لم ينسَ أن يلمح إلى التوصية بها في خُطبة الوداع، وهي الخطبة التي اِعْتَصَرَ فيها ما ينبغي قوله للمسلمين بعد أن أحسّ أنّ هذه آخر وقفة له معهم في الحجّ، لم يفته في هذه الخطبة الجليلة الحافلة أن يوصي بالنساء مفتتحًا حَديثه عنهن بهذا التنبيه الدالّ على العناية والاهتمام.

" **ألا واستَوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هنّ عوانٌ عندكم، ليس تملكونَ منهن شيئًا غيرَ ذلك، إلّا أنْ يأتين بفاحشة مبيّنة، فإنْ فعلْنَ فاهجروهُنَّ في المضاجع، واضْرِبوهنَّ ضربًا غيرَ مُبرحٍ، فإنْ أطعْنَكم فلا تبغوا عليهن سبيلًا، ألا إنَّ لكم على نسائكم حقًّا، ولنسائكم عليكم حقًّا، فأمّا حقُّكم على نسائكم فلا يوطِئْنَ فَرْشَكم من تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتِكم لمن تكرهون، ألا وحقُّهنَّ عليكم أنْ تُحسنوا إليهن في كِسوتِهنّ وطعامِهنّ.**" (رواه الترمذي: ١١٦٣)

إنها الوصية التي يسمعها كل زوج مسلم صادق واعي، فيرى فيها الهدي النبوي الحكيم في تحديد الحقوق والواجبات على الأزواج والزوجات في إطار الرحمة بالنساء، والصبر عليهن، والإحسان إليهن، ممّا لا يدع مجالًا للتفكير بظلم الزوجة أو الإضرار بها في بيت الزوجيّة المسلم.

ويسمو الإسلام الحنيف في إنصاف المرأة، وتكريمها، وتوصية الزوج بحسن معاشرتها حتى ولو كان كارهًا لها، وهذا ما لم تصل إليه المرأة في تاريخها كله إلّا في هذا الدين، يقول تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ (النساء: ١٩)

إنَّ هذه الآية الكريمة لتلمس وجدان المسلم الصادق، فتهدئ من فورة غضبه إذا غضب، وتقلّل من حدة كراهيته لزَوْجه إن كره، وبذلك يقي الإسلام عروة الزوجيّة من الانفصام، ويحفظ الرباط المقدّس أن يكون عرضة لنزوة العاطفة المتقلبة، أو حماقة الميل الأهوج الطائر هنا وهناك.

وما أعظم قول عمر بن الخطاب لرجل أراد أن يطلق زَوْجه لأنّه يكرهها: " ويحك ألم تُبْنَ البيوت إلّا على الحبّ؟! فأين الرعايةُ والتذمّمُ؟"

إنَّ عقدة الزوجيّة في الإسلام لأكبر من النزوات العاطفيّة الصغيرة، وأجلّ من ضغط الميل الحيواني المسعور، وإنَّ في المسلم الحقّ من المروءة والنبل والاحتمال وسعة الصدر ما يجعله يرتفع في تعامله مع

زَوْجه التي يكرهها بعيدًا جدًّا عن نزوات البهيمة، وطمع التاجر، وتفاهة الفراغ.

بل إنَّ المسلم الحقَّ لا يسعه إلّا أن يمتثل أمر ربّه، فيحسن معاشرة زَوْجه، ولو كان كارهًا لها، ذلك أنه يتدبر قول ربّه العليم الخبير بإنَّ الإنسان قد يكره الشيء، ويعافه ويود الابتعاد عنه، وهو محفوف بالخير، مفعم بالبركة؛ ولذلك المسلم الحقّ يعرف كيف يحبّ؟ ويعرف كيف يكره؟ فلا يندفع مع من أحبّ اندفاع الأهوج الأعمى، ولا يزورّ عمّن أبغض ازورارَّ الجافي المعرض المنكر الجاحد، وإنما يكون في الموقفين معتدلًا مقسطًا منصفًا.

ويبيّن رسول الإسلام العظيم أنَّ المرأة المسلمة المؤمنة مهما كرهها زَوْجها فإنها لا تخلو من خلق كريم يرضى عنه زَوْجها، فما ينبغي له أن يتجاهل هذا الجانب الرضي فيها، ويبرز الجانب الذي يكره، قال صلى الله عليه وسلم: " **لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً إنْ كره منها خُلقًا رَضِيَ منها آخرَ أو قال غيرَهُ**." (رواه مسلم: ١٤٦٩) ومعنى لا يفرك: لا يبغض." (محمّد الهاشمي بتصرف: ١٤٢٥ هـ)

١١. المرأة لباس للرجل وسكن له:

" المرأة الصالحة عماد الأسرة المسلمة، وركنها الركين، وأساسها المتين، وهي متعة الحياة الأولى في حياة الرجل، بل هي خير متاع له في هذه الحياة، كما قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: " **الدنيا متاعٌ، وخيرُ متاعِ الدنيا المرأةُ الصالحةُ**." (رواه مسلم: ٢٧٦٠)

إنها النعمة الكبرى على الرجل، إذ يسكن إليها من لَأْواء العيش ولغوب الكدح والنصب، فيجد عندها الراحة والسلوى والسكينة والمتاع الذي لا يدانيه في حياة الإنسان أي متاع.

فكيف تكون المرأة خير متاع في حياة زوجها، وزوجة ناجحة في علياء أنوثتها، مُحَبَّبَة مُكَرَّمَة مُعَزَّزَة؟

تكون كذلك حينما تكون مطيعة لزَوْجها دومًا في غير معصية، بارّة به حريصة على إرضائه وإدخال السرور على نفسه، حتى وإن كان فقيرًا معسرًا، لا تتذمّر من ضيق ذات اليد، ولا تضيق ذرعًا من أعمال البيت.

إنَّ الزوجة المسلمة الصادقة لَتُقْبِل على خدمة بيتها وزَوْجها، وهي تعلم حقّ زَوْجها عليها، وإنه لحقّ كبير كبير، أَكدَهُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أبلغ التأكيد في قوله: " **لا يَصْلُحُ لبشرٍ أن يسجُدَ لبشرٍ، ولو صَلُحَ أن يسجُدَ بشرٌ لبشر؛ لأمرتُ المرأةَ أن تسجُدَ لزَوْجِها؛ من عظم حقّه عليها.**" (رواه أحمد: ١٢٦١٤)

فهل تستطيع المرأة المسلمة، بعدما تسمع هذا الهدي النبوي الكريم أن تتأفف من خدمة بيتها وزَوْجها؟ "

(محمّد الهاشمي بتصرف: ١٤٢٥ هـ)

الزوجة الناجحة هي التي تحسن تَبَعُل زَوْجها، وحُسن التبَعُل هو: أن تفهم نفسية زَوْجها، وتتعرف على عاداته، وتتبيّن ما يرضيه، وما يسخطه؛ لتراعي هذه الأمور في معاشرتها لزَوْجها، فإن راعت الزوجة المسلمة ذلك كسبت قلب زَوْجها، وحازت على تقديره وإعجابه.

والمرأة التي تتجاهل مثل هذه الأمور، وتفعل عكسها، فمن المؤكد أنها لن تكون زوجة ناجحة، وستخسر قلب زَوْجها وتقديره لها، وستجبر زَوْجها إلى سوء خلقه معها؛ لأنَّها أحوجته إلى سوء الخلق هذا.

١٢. براءة حواء من ذنب إغواء آدم:

ألصقت بحواء تهمة هي منها براء ألا هي تهمة إغواء آدم حتى أكل من الشجرة!

ففي الأساطير الإغريقية القديمة أسطورة (بندورا)، تقول هذه الأسطورة: إنّ الناس كانوا يعيشون حياة سعيدة، وكان لبندورا صندوقًا، وأُمِرَ ألّا يفتحه، وقد أثار هذا الصندوق فضول زَوْجه، فأغرت زَوْجها بفتحه، فانطلقت منه الحشرات، وعمَّ الظلام! ومنذ تلك اللحظة ابتلي الناس بالآلام والأحزان.

والفكرة نفسها تجدها في التوراة، فسفر التكوين يذكر في الاصحاح الثالث أنَّ حواء هي سبب الخطيئة، وهي التي دفعت رجلها إليها.

بيد أنَّ القرآن حرّر المرأة من هذه النظرة الجائرة، فجعل الذنب منها ومن زَوْجها.

فالذنب الأوّل وقع من آدم وحواء، فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما، وبذلك خلّص القرآن المرأة من الوصمة التي لحقتها منذ القدم، قال تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ

ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾ (الأعراف: ١٩ ــ ٢١)

وحين تمّت الفعلةُ فإنها تمّت منهما ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ (الأعراف: ٢٢)

وحين يوجّه الله العتاب لا يوجّهه إلى واحد منهما بل يوجّه إليهما معًا ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ (الأعراف: ١٩)

وحين التوبة يعترفان بالذنب ويقولان بلسان واحد: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ (الأعراف: ٢٣) (عبد الحميد ابراهيم بتصرف: ١٩٨٨)

١٣. الفطر السليمة تأبى العُرّيّ وإبداء الزينة في غير موضعها:

الفطر السليمة تأبى العُرّيَّ والتحلّل وإبداء الزينة في غير موضعها، وتحرص على الستر والعفاف والطهر، والذي يحيد بها إلى العُرّي والتحلّل هو الذنوب، قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ (طه: ١٢١)

فآدم وحواء كانا في ستر وعافية، فلمّا وقعت منهما المعصية انهتك الستر الذي كان بين الله وبينهما، فلمّا انهتك ذلك الستر، بدت لهما سوآتهما، فالمعصية تبدي السوءة الباطنة والظاهرة.

فما كان منهما إلّا ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ (طه: ١٢١) أي: يلزقان على أبدانهما العارية ورق الجنّة؛ ليكون بدل اللباس، فالستر والعفاف سمة الفطر السليمة في كل زمان ومكان وعلى النقيض العُرّي والتحلّل سمة الفطر المعوجة.

وبذلك من يظنُّ أنّ العُرّي وإبداء الزينة في غير مواضعها هو دليل على تقدّم الإنسان وحضارته، لعمرك هو ظنّ باطل ومردود.

فالإنسان – سواء أكان ذكرًا أم أنثى – يستر نفسه بقدر فطرته الإنسانيّة السليمة؛ ليستحق النسبة إلى أبويه آدم وحواء، وبقدر ما يستر نفسه يكون إنسانًا، وبقدر ما يتعرى يكون بهيميًا.

إنَّ مسارعة آدم وحواء إلى ستر عرواتهما بأوراق الشجر دليل على أنّ الحياء عنصر أصيل مركوز في فطرة الإنسان، فعليه أن يهتم به، ويحافظ عليه، ويصونه من أن يُثْلَمَ في صيانته وسلامته، حفاظًا للفطرة واعتناءً بها من أنَّ تمسخ أو تحرف؛ لأنّ في انحرافها مسخًا وتشويهًا لآدميته.

١٤. حقيقة الحسد:

قال ابن حجر: " الحسد هو تمنّي زوال النعمة من المنعم عليه." (خالد الحازمي: ١٤٢٥)

وقال الحازمي: " والحسدُ مركوزٌ في طباع البشر فهو يؤدي إلى التنافس إذا كان من نوع الغبطة ولم يتجاوز حدوده، قال ابن القيم: وللحسد حدٌّ هو المنافسة في طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره،

فمتى تعدى ذلك صار بغيًا وظلمًا، يتمنّى معه زوال النعمة عن المحسود، ويحرص على إيذائه، ومتى نقص عن ذلك كان دناءة وضعف همّة وصغر نفس." (خالد الحازمي: ١٤٢٥)

وقال أيضًا: " فهو إن تجاوز حدود دائرته أصبح حسدًا، وإذا نقص أصبح بلادة وبرودة وجبنًا، وإذا انحصر في محيط دائرته أصبح غبطة[١] مقبولة بناءة." (خالد الحازمي: ١٤٢٥)

وقال ابن الجوزي: " رأيتُ الناس يذمون الحاسد، فنظرتُ في هذا فما رأيته كما يقولون، وذلك أنَّ الإنسان لا يحبّ أن يرتفع عليه أحد، فإذا رأى صديقه قد علا عليه تأثر هو، ولم يحبّ أن يرتفع عليه، وودّ لو لم ينل صديقه ما ينال، أو أن ينال هو ما نال ذاك لئلا يرتفع عليه، وهذا معجون في الطين ولا لوم في ذلك، إنما اللوم أن يعمل بمقتضاه من قول أو فعل." (ابن الجوزي: ١٩٩٩)

وعليه فالحسد أقسام ثلاثة:

- **القسم الأوّل: حسد مرفوض مردود:** وهو أن يكره الإنسان رؤية النعمة على أخيه المسلم، فيتمنّى أن تزول عنه سواء انتقلت إليه أم لم تنتقل، وقد يسعى إلى إزالتها بقول أو وفعل.

---

(١) **الغبطة:** " هي رغبة في النفس أن يكون لها مثل ما لغيرها، وهي ممدوحة أيضًا؛ لأنَّها غالبًا تنتهي بالمنافسة إذا صحبتها العزيمة وقوّة العمل." (خالد الحازمي: ١٤٢٥)

- **القسم الثاني: حسد مسموح مباح:** " وهو رؤية الإنسان النعمة على أخيه ولا يتمنّى زوالها، ولكن يتمنّى أن يكون له مثلها، وهذا يسمى حسد الغبطة." (خالد الحازمي: ١٤٢٥)

- **القسم الثالث: حسد مطلوب محبوب:** " وهو الحسد الذي يدفع الإنسان للتنافس في طاعة الله تعالى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **لا تَحاسُدَ إلّا في اثنتينِ: رجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ فهو يتلوه آناءَ الليل وآناءَ النهار، فهو يقولُ: لو أُوتيتُ مِثْلَ ما أُوْتِيَ هذا لفعلتُ كما يفعلُ، ورجلٌ آتاه الله مالاً يُنفقُهُ في حقِّه فيقول لو أُوتيتُ مثل ما أوتي، لفعلت كما يفعل.**" (رواه البخاري: ٧٢٣٢)

وسماه حسدًا من باب الاستعارة." (خالد الحازمي: ١٤٢٥)

وقد كان حسد أحد ابني آدم لأخيه من القسم الأوّل.

١٥. الشيطان والإغواء:

الشيطان مخلوق جبان ضعيف، قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٧٦)

" ومن دلالات ضعفه انتهازه فرصة نوم الإنسان، فيسدلّ عليه رداء الكسل حتى لا يتمكن من العبادة والذكر." (محمّد الصايم)

قال صلى الله عليه وسلم: " **يَعْقِدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدِكُم إذا هو نام ثلاثَ عُقدٍ، يضربُ كلَّ عقدةٍ عليك ليلٌ طويلٌ، فارقدْ، فإنْ استيقظ فذكر الله انحلتْ عقدةٌ، فإنْ توضأ انحلت عقدةٌ، فإنْ صلّى**

انحلت عُقدةٌ، فأصبحَ نشيطًا طيّبَ النفس، وإلّا أصبحَ خبيثَ النفس كسلانَ." (رواه البخاري: (١١٤٢)، ومسلم: (٧٧٦))

والشيطان لا يملك في ضرّ الإنسان إلّا الوسوسة والإغواء، وما أن يقع الإنسان في شَرْكه سرعان ما يتخلى عنه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ (إبراهيم: ٢٢)

قال الجاحظ: " ذكر قوم إبليس فلعنوه وتغيظوا عليه، فقال أبو حازم الأعرج: ما إبليس؟ لقد عُصِيَ فما ضر! وأُطيعَ فما نفع." (الجاحظ: ٢٠١٠)

وبنظرة سريعة هادئة إلى أساليب الشيطان الخبيثة لإغواء بني آدم يمكننا أن نوجز أهمّها فيما يأتي:

أولًا: إغواؤه للإنسان بالخلد وطول الأمل والبقاء في الشهوات.

" وهذا ما حدث مع آدم – عليه السلام – حيث مناه بالخلد وزيّن له ذلك." (محمّد الصايم)

ثانيًا: الإغواء باللهو والغلبة بالمال:

" فتجد كثير من الناس يضيعون الأوقات في المقاهي، والنواصي، وفي التجوّل في الأسواق، والقمار حتى إنَّ الإنسان لا يهدأ له بال، ولا يستقرّ له حال حتى يغلب خصمه في الشطرنج أو الميسر، ولو باع أثاث منزله أو سرق أو قتل في سبيل ما زيّنه له إبليس." (محمّد الصايم)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ (المائدة: ٩٠ – ٩١)

ثالثًا: الكيد للإنسان:

" يظلُّ الشيطان بالوسوسة وراء الإنسان حتى يكيد له، ويغيظه، فيدخله في دائرة الانْتقام من أخيه المسلم والتربص به، ويريه أنَّ السعادة في إيذاء الجيران، وقطع صلة الأرحام، والتفاخر بالمعاصي، وإعلان الفجور.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا

تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ (الأنفال: ٤٨)"
(محمّد الصايم)

o o o o

خاتمة الكتاب

آدم – عليه السلام – هو أبو البشر الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلّمه العلم النافع، وأسجد له الملائكة، وجعله نبيًّا كريمًا، وخلق له من نفسه زوجًا له؛ ليسكن إليها، وأسكنه فسيح جنّته، فتمتع في جنّة ربّه أيما تمتع هو وزَوْجه المباركة حواء، ولم يمنعهما من أي شيء في هذه الجنّة سوى شجرة واحدة اختبارًا وامتحانًا.

بقي آدم وزَوْجه في جنّة ربّهما مُنَعمينِ مُكْرمينِ ما شاء الله، حتى وقعت المحنة لمّا صدقا عدوّهما، الذي احتالا عليهما بمكره ودهائه، فأكلا ممّا نُهيا عنه، وعندما ظنّ إبليس اللعين أنه قد ظفر بهما، وسجل انتصارًا عليهما، وإذ به يفاجأ بتوبة الله عليهما.

تاب الله على آدم وحواء، ولكنّ الأمر الذي حذرهما الله منه ألا هو خروجهما من الجنّة إن هما تناولا من هذه الشجرة شيئًا قد وقع وانقضى، فأُهْبِطوا جميعًا إلى دار الشقاء، والابتلاء، والكدّ، والتعب.

ولمّا أُهْبِطَ آدم وزَوْجه إلى الأرض، بثّ الله منهما رجالًا كثيرًا ونساء، فقامت سوق الابتلاء، وراجت تجارة الاختبار والامتحان لذرّيّته، وأوّل من خسر في سوق ابتلاء الدنيا هذه ابن آدم الأوّل، عندما وقع الحسد في قلبه، فإذ بالأخ الحاسد يترجم حسده بفعلة شنعاء ألا هي هدم ما بناه الله وأتقنه، فقتل النفس التي حرّمها الله.

ومنذ ذلك الزمن السحيق خسر في هذه السوق الكثير من ذرّيّة آدم وصَدَقَ ظنّ إبليس فيهم.

هذه قصّة آدم أو قل قصّة الحياة كاملة من بدايتها إلى نهايتها، هي قصّة الوجود بأجمعه منذ أن ظهر هذا المخلوق البشري على ظهر هذا الكوكب الأرضي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هي قصّة الأحقاب الطويلة، والأجيال المتعاقبة الكثيرة التي مرّت على هذا العالم، فعاشت فيه، ثم رحلت عنه مخلفة وراءها هذه المظاهر والآثار البشريّة.

قائمة المراجع:

١. إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة الصفا، ٢٠٠٢ م.
٢. إسماعيل بن كثير الدمشقي، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار التراث العربي للطباعة والنشر، ١٩٨٧ م.
٣. أبو القاسم القشيري، لطائف الإشارات، مركز تحقيق التراث، ١٩٨١ م.
٤. الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بدون سنة نشر.
٥. خالد بن حامد الحازمي، مساوئ الأخلاق وأثرها على الأمة، وكالة المطبوعات والبحث العلمي وزارة الشؤون الإسلامية المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥ هـ.
٦. زكريا بن محمد الأنصاري، فتح الرحمن شرح ما يتلبس من القرآن، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣ م.
٧. شمس الدين بن القيم الجوزية، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان، دار بن رجب، ٢٠٠٢ م.
٨. شمس الدين ابن القيم الجوزية، الفوائد، دار ابن رجب، ١٤٢٢ هـ.
٩. عبد الحميد إبراهيم، مقالات في النقد الأدبي، نادي الأدب بالمينا، ١٩٨٨ م.
١٠. عبد الحميد كشك، في رحاب التفسير، المكتب المصري الحديث، بدون سنة نشر.
١١. عبد الرحمن السعدي، قصص الأنبياء، فصول في ذكر ما قص علينا في كتابه من أخبار الأنبياء مع قومهم دار أضواء السلف، ٢٠٠٢ م.
١٢. عبد الرحمن السعدي، تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار ابن الهيثم، ٢٠٠٠ م.
١٣. عبد الرحمن ابن الجوزي، صيد الخاطر، دار الحديث، ١٩٩٩ م.
١٤. عدنان محمد الكحلوت، إعلام السادة النبلاء بسيرة صفوة العالمين من المرسلين والأنبياء، دار المنارة، ٢٠١١ م.
١٥. عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبين، مكتبة ابن سينا، ٢٠١٠ م.

١٦. محمد الصايم، الوصايا العشر للوقاية من الجن والشياطين، دار الفضيلة، بدون سنة نشر.
١٧. محمد خليل هراس، دعوة التوحيد أصولها والأدوات التي مرت بها مشاهيرها ودعاتها، مكتبة الصحابة، بدون سنة نشر.
١٨. محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، ٢٠٠٥ م.
١٩. محمد بن إسحاق بن خزيمة، كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، دار الحديث، ٢٠٠٢ م.
٢٠. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، دار ابن حزم، ٢٠٠٢ م.
٢١. محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، بدون دار نشر، بدون سنة نشر.
٢٢. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني، بدون سنة نشر.
٢٣. محمد بن صالح العثيمين، تقريب التدمرية، مكتبة السنة، ١٩٩٢ م.
٢٤. محمد بن محمد أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، ١٤٠٨ هـ.
٢٥. محمد علي الهاشمي، شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة، وكالة المطبوعات والبحث العلمي، وزارة الشؤون الإسلامية المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥ هـ.
٢٦. محمد علي الهاشمي، شخصية المسلمة كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة، وكالة المطبوعات والبحث العلمي، وزارة الشؤون الإسلامية المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥ هـ.
٢٧. محمد نعيم ياسين، الإيمان أركانه، حقيقته نواقضه، مكتبة السنة، ١٩٩١م.
٢٨. محمود المصري، قصص القرآن، دار التقوى، ٢٠٠١ م.
٢٩. مصطفى بن العدوي، الصحيح المسند من الأحاديث القدسية، مكتبة الإيمان، ٢٠٠٢ م.